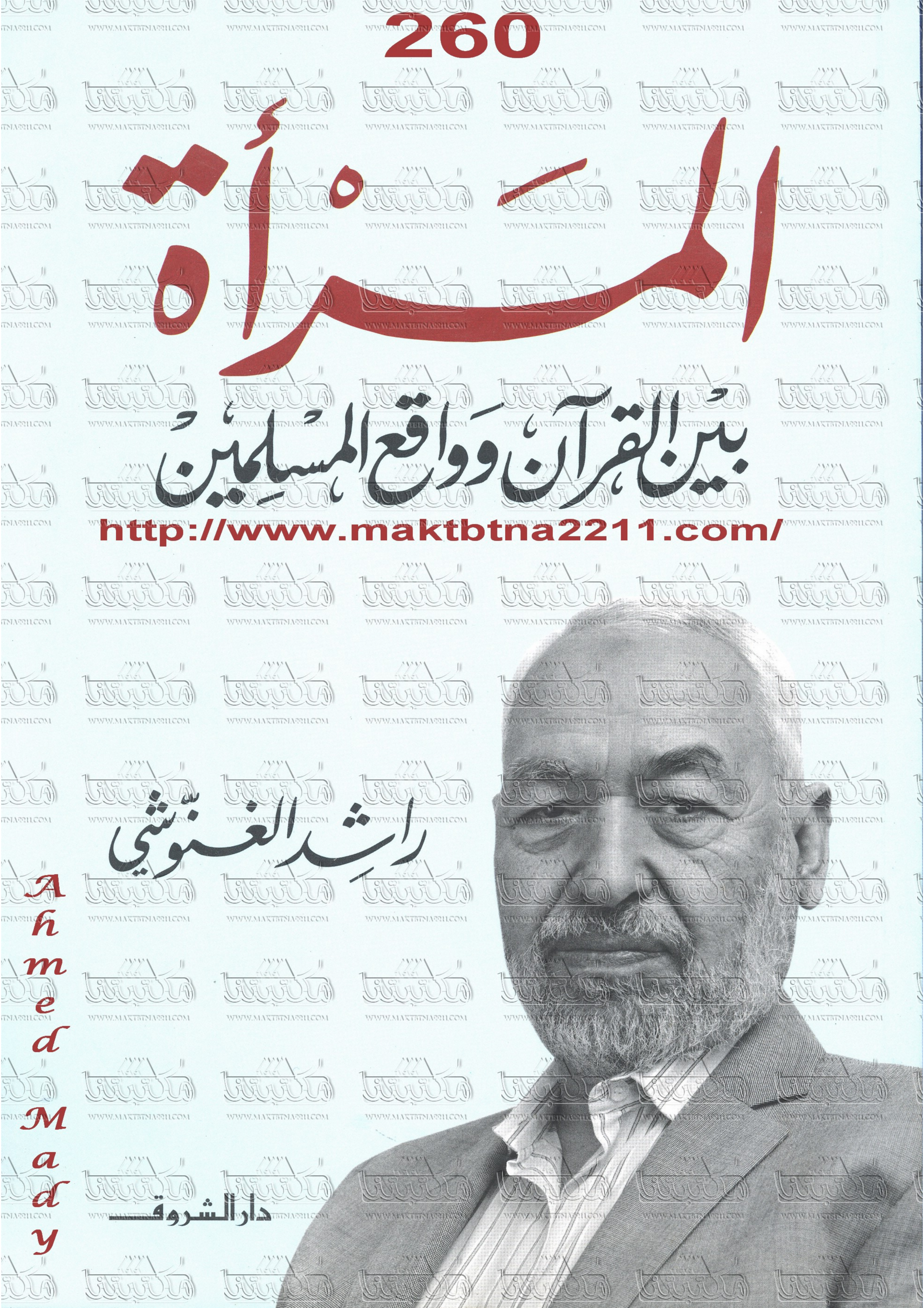

260
المرأة
بين القرآن وواقع المسلمين
http://www.maktbtna2211.com/
راشد الغنوشي
Ahmed Mady
دار الشروق

على اختلاف الناس في اللون والجنس والمدارك والمواطن فليس لذلك من أثر في عموم الخطاب القرآني. ولكن وراء ذلك العموم خُصَّت المرأة في القرآن بالحديث عن مكانتها في التصور الديني وفي الأسرة وفي المجتمع وسائر علاقاتها الاجتماعية. كما تحدث القرآن عن نماذج نسائية، وحَمَلت ثاني أطول سورة في القرآن اسم «سورة النساء»، وتجاوزت الآيات التي خُصَّت بالحديث عن النساء مئتين وخمسين آية.

وفي هذا الكتاب يحاول الشيخ راشد الغنوشي استعراض عدد من الموضوعات النسائية في القرآن، ويلقي عليها أضواء من مشكاة أئمة الفكر الإسلامي عبر تاريخ هذا الفكر ممثَّلًا بخاصة في كتب التفسير، وهي تمثل الجهد البشري في استجلاء وتفهُّم الوحي وتبيُّن مراده.

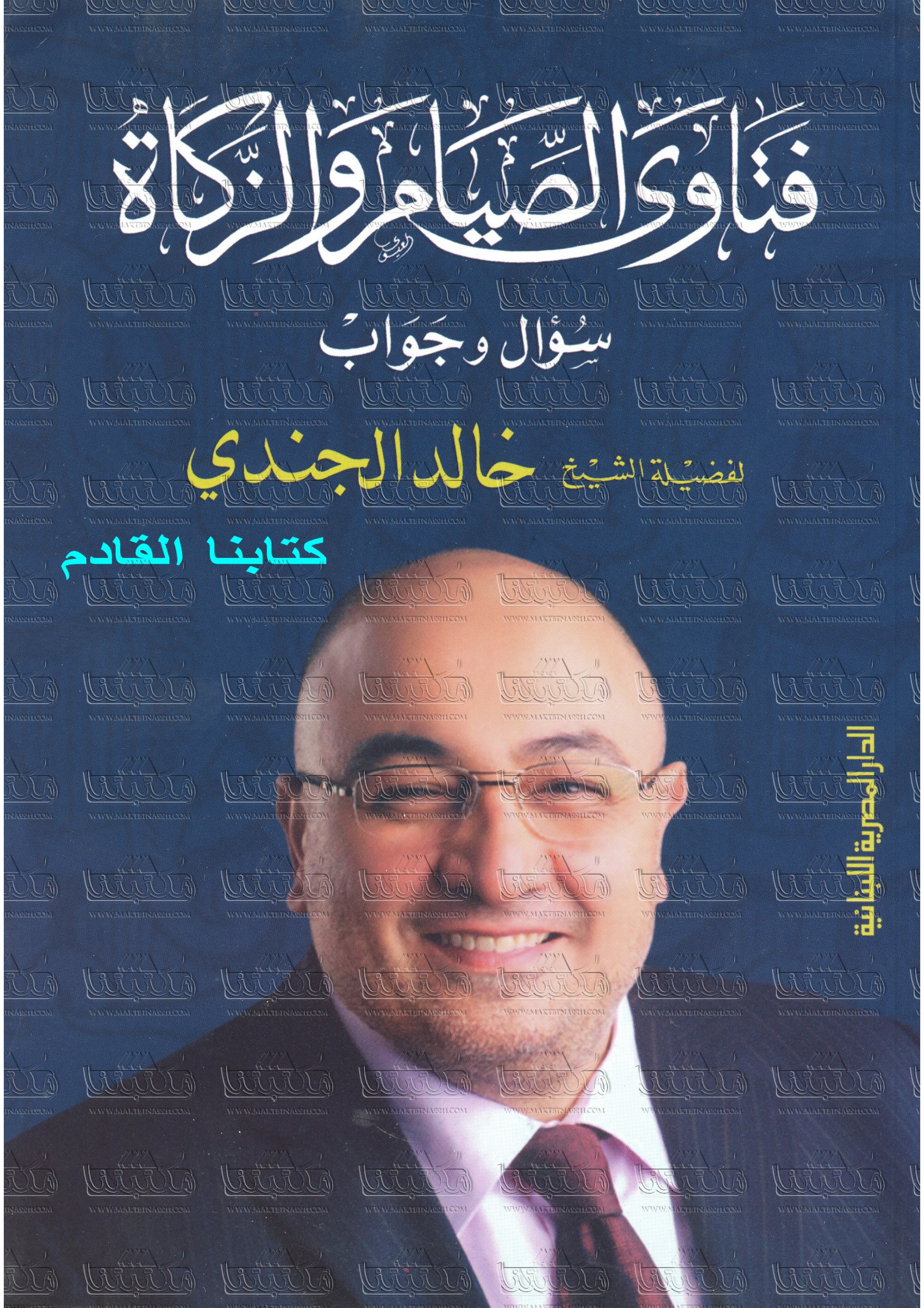
راشد الغنوشي رئيس ومؤسس حركة النهضة التونسية و نائب رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين. يعتبر الشيخ راشد أحد أبرز المفكرين الإسلاميين المعاصرين، وأحد أهم قيادات العمل الإسلامي. أسس حركة الاتجاه الإسلامي في تونس سنة ١٩٨١ التي غيرت اسمها سنة ١٩٨٨ إلى حركة النهضة. كان أبرز المعارضين لنظامي بورقيبة وبن علي، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة عدة مرات في العهدين، وقضى عدة سنوات في السجن. بعد ثورة ١٤ يناير ٢٠١١ عاد راشد الغنوشي إلى تونس بعد أكثر من ٢٢ عامًا من المنفى، وقاد حزب حركة النهضة إلى الفوز بالأغلبية في الانتخابات البرلمانية والتحالف مع أحزاب علمانية لتكوين أول حكومة منتخبة في تاريخ تونس.

يعتبر الشيخ راشد الغنوشي أحد أبرز المنظرين لما يعرف بـ «الإسلام السياسي» و«الفكر الإسلامي المعتدل»، وقد أسهمت كتاباته في إحداث تطور في فكر وخطاب التيار الإسلامي، وإلى مراجعة وتغيير مفهوم وتعاطي حركات الإسلام السياسي مع عدد من القضايا المهمة ومنها: الحرية، والديمقراطية، والتعددية الحزبية، ودخول العملية السياسية، والمشاركة في الانتخابات والبرلمانات والحكومات، ونبذ العنف، والحريات الخاصة والعامة.


ISBN 978-977-09-3118-9
9 789770 931189

Friday
13/7/2012
Riyadh

دار الشروق
www.shorouk.com


فتاوى الصيام والزكاة
سؤال وجواب
لفضيلة الشيخ خالد الجندي
كتابنا القادم
الدار المصرية اللبنانية



راشد الغنوشي

المرأة
بين القرآن وواقع المسلمين

دار الشروق



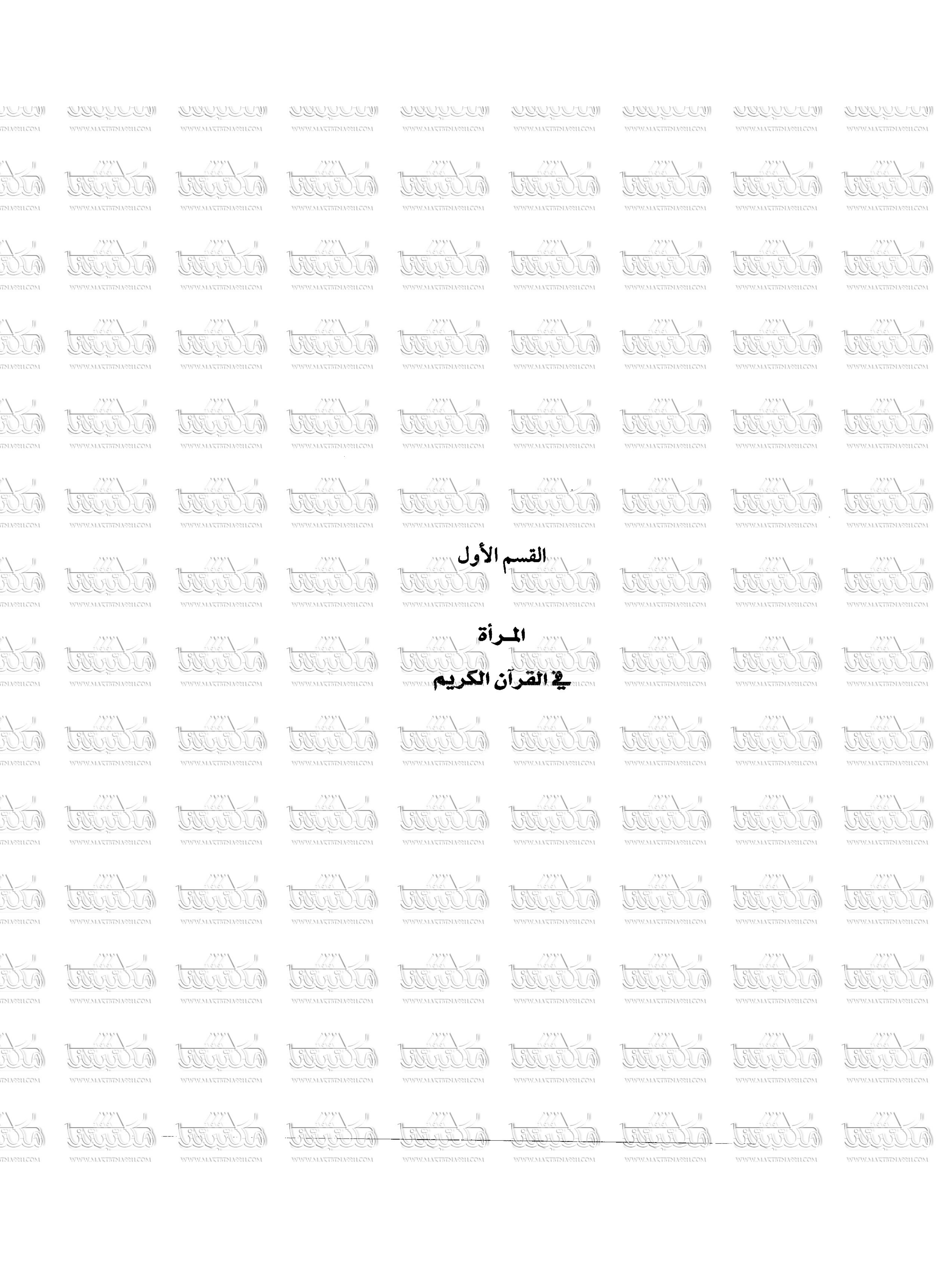
المحتويات

القسم الأول

المرأة في القرآن الكريم

القسم الثاني

المرأة في واقع المسلمين



القسم الأول

المـرأة في القرآن الكريم

الحلقة الأولى[1]

مقدمة

إن صلاح الإنسان ورعايته من أجل تحقق أقصى الكمالات الممكنة لطبيعته هو الهدف الأساسي للقرآن الكريم. وعلى الرغم ممَّا بين الناس من اختلاف في اللون والجنس والمدارك والمواطن فليس لذلك من أثر في عموم الخطاب القرآني. «ولذلك صرح علماء الأمة بأن خطاب القرآن بصيغة التذكير يشمل النساء، ولا تحتاج العبارات من الكتاب والسنة في إجراء أحكام الشريعة على النساء إلى تغيير الخطاب من تذكير إلى تأنيث»[2].

فالأصل إذن في الخطاب القرآني عموم الرجال والنساء إلا ما ثبت اختصاصه. ولكن وراء ذلك العموم خُصَّت المرأة في القرآن بالحديث عن مكانتها في التصور الديني وفي الأسرة وفي المجتمع وسائر علاقاتها الاجتماعية، كما تحدث القرآن عن نماذج نسائية، وحَمَلت ثاني أطول سورة في القرآن اسم «سورة النساء».

وتجاوزت الآيات التي خُصَّت بالحديث عن النساء مئتين وخمسين آية.

وسنحاول في هذه الحلقات استعراض عدد من الموضوعات النسائية في القرآن، ملقين عليها أضواء من مشكاة أئمة الفكر الإسلامي عبر تاريخ هذا الفكر ممثَّلًا بخاصة في كتب التفسير، وهي تمثل الجهد البشري في استجلاء وتفهُّم الوحي وتبيُّن مراده.

---

(١) هذه الحلقة والأربع التي تليها كتبت بجسن الناظور سنة ١٩٨٤.

(٢) العلامة محمد الطاهر بن عاشور ـ مقاصد الشريعة الإسلامية ـ ٢٤٢ ـ تحقيق الأستاذ محمد الطاهر الميساوي (دار الفجر ـ دار النفائس) الطبعة الأولى ١٩٩٩.

وبدهي أن التفسير عملٍ بشري، مهما توافرت له من أدوات الصنعة يبق محدودًا بحدود ملكات المُفسِّر ومدى تأثُّره بالاتجاهات الثقافية والمناهج التفسيرية السائدة في عصره، ومستوى تطور العلم، ممّا يجعل تلك الجهود مهما كانت ضخامتها لا تعدو كونها اجتهادات مأجورًا ومشكورًا عليها أصحابها. ولكن النص القرآني تبقى له ذاتيته واستقلاله وتعاليه وامتناعه عن التحديد في أي قالب تفسيري، ويظل محتفظًا بثرائه غير المحدود وقابليته لإنتاج فيضات غزيرة من المعاني والحكمة المتجددة بحسب ارتقاء الفكر وتطور العلوم. ولعل ذلك بعض ما عناه حَبر القرآن وترجمانه ابن عباس رضي الله عنه إذ قال: «القرآن يفسره الزمن»[1].

أصل واحد

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

إن مسألة النوع الإنساني من أكثر المسائل التي شغلت ولا تزال تشغل الفكر البشري منذ أقدم العصور، وذهبت فيها مذاهب شتى اختلطت فيها الحقيقة بالأسطورة لدرجة يصعب التمييز بينها. وأكثر الآراء انتشارًا في الوسط الديني يوم ظهر الإسلام ما ورد في سفر التكوين في الفصل الثاني من أن «الله خلق آدم، وخلق من ضلعه الأيسر وهو نائم حواء». وعلى الرغم من أن شيئًا من ذلك لم يرد في نصوص القرآن والسنة، فقد ذهب جمهور المفسرين إلى حسبان النفس الواحدة في هذه الآية وغيرها هي آدم، وأن حواء خُلقت من ضلعه، على حين ذهب مفسرون آخرون قُدامى ومُحْدَثون إلى أن هذا الفهم ليس ملزمًا، بل هناك ما هو أولى منه بسياق الآية، بل وهّن بعض المفسرين المحدثين الروايات المتضمنة لهذا المعنى بأنها مشوبة بالإسرائيليات لا يمكن أن نعتمد عليها[2].

نقل الرازي عن أبي مسلم أن معنى ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ خَلَقه من جنسها فكان مثلها[3].

(١) ابن كثير في التفسير.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، الجزء ٣، دار الشروق.
(٣) محمد رشيد رضا، تفسير المنار ٤/ ٣٣٠.

فأصل البشر زوجان مخلوقان من جنس واحد أو مادة واحدة. فكأن الآية حسب هذا التفسير ابتغت أن تبرز فكرة «**التماثل والتساوي**»، وتضرب فكرة التمييز والمفاضلة بين شِقَّي الإنسانية، وتستبعد في الوقت نفسه كل تفكير عنصري يقوم على تفضيل جنس أو شعب أو لون على جنس أو شعب أو لون آخر اعتمادًا على مجرَّد الوصف.

يورد الرازي ثلاثة تأويلات لهذه الآية:

التأويل الأول: «ما ذكره عن القفّال وهو أنه تعالى ذكر هذه القصة على سبيل ضرب المثل. والمراد خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها إنسانًا يساويه في الإنسانية»..

والتأويل الثاني: «أن الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد النبي وهم آل قصي، وأن المراد بالنفس الواحدة قصي».

والتأويل الثالث: «أن النفس الواحدة آدم»[1].

ويرجح الرازي من بين هذه التأويلات التأويل الأول ويؤصّله لغويًّا وعقليًّا، دافعًا بقوة التأويلين الآخرين والأخير بخاصة، وكأن الثاني غير جدير حتى بالرد لتصادمه مع التوجُّه الإنساني للقرآن الكريم.

يقول: ويمكن أن يُجاب بأن كلمة ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ لابتداء الغاية، فلما كان ابتداء الخلق والإيجاد وقع بآدم عليه السلام [أي ابتدأ الخلق به] صحّ أن يُقال ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾. وأيضًا فلما ثبت أنه تعالى قادر على خلق آدم من التراب كان أيضًا قادرًا على خلق حواء من التراب. وإذا كان الأمر كذلك فأيّ فائدة في خلقها من ضلع من أضلاع آدم؟

ويعلق الأستاذ رشيد رضا بقوله: «وهو يدل على اختيار ما اختاره أبو مسلم ومثله الأستاذ الإمام محمد عبده»[2].

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار ٣٢٥.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار ٢٢٥ ـ ٢٣٢.

ويضع الأستاذ الإمام الآية في سياقها، دافعًا تأويل الجمهور للنفس الواردة في الآية من أنها تخص أحكام اليتامى ونحوه، وكأنه يقول: «يأيها الناس خافوا الله واتقوا اعتداء ما وضعه لكم من حدود الأعمال، واعلموا أنكم أقرباء يجمعكم نسب واحد وترجعون إلى أصل واحد، فعليكم أن تعطفوا على الضعيف كاليتيم الذي فقد والده وتُحافظوا على حقوقه». ويضيف: «ليس المراد بالنفس الواحدة آدم بالنص ولا بالظاهر. والقرينة على أنه ليس المراد هنا بالنفس الواحدة آدم قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ بالتنكير، وكان المناسب على هذا الوجه أن يقول: «وبث منهما جميع الرجال والنساء»، وكيف ينص على نفسٍ معهودة والخطاب عام لجميع الشعوب، وهذا العهد ليس معروفًا عندهم جميعهم! فمنَ الناس من لا يعرفون آدم ولا حواء ولم يسمعوا بهما. وقد أبهم الله تعالى أمر النفس التي خلق الناس منها وجاء بها نكرة فندعها على إبهامها.

وأقول زيادة في الإيضاح: «إذا كان جماهير المفسِّرين فسّروا النفس الواحدة هنا بآدم فهُم لم يأخذوا ذلك من نص الآية ولا من ظاهرها»، بل المسألة المسلّمة عندهم هي أن آدم أبو البشر..

والذي يريد أن يصل إليه الشيخ عبده ليس نفي كون آدم أبًا للبشر، وإنما كون ذلك أمرًا ثابتًا، فالقرآن يُثبته إثباتًا قطعيًّا لا يحتمل التأويل[1].

والذي يميل إليه الأستاذ الإمام: «إن المتبادر من لفظ النفس بصرف النظر عن الروايات والتقاليد والمسلّمات، أنها هي الماهية أو الحقيقة التي كان بها الإنسان هو الكائن الممتاز على غيره من الكائنات، أي خلقهم من جنس واحد وحقيقة واحدة»[2]، بل إن النص القرآني لا ينفي في رأي الأستاذ الإمام أن تكون النفس الأولى هي حواء وليس آدم..

يقول هذا: وإنّ في النفس الواحدة وجهًا آخر هو أنها الأنثى، ولذلك أنَّثها حيث وردت وذكر زوجها الذي خُلق منها في آية الأعراف فقال: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وعليه يظهر افتتاح السورة بها ووجه تسميتها بالنساء أكثر.

---

(١) تفسير المنار ٣٢٤ـ ٣٢٥ـ ٣٢٦.

(٢) تفسير المنار ٣٢٧.

وأصحاب هذا الرأي يقولون: إنه من قبيل ما هو ثابت إلى اليوم عند العلماء من التوالد البكري هو أن إناث بعض الحيوانات الدنيا تلد عدّة بطون من دون تلقيح من الذكور[1].

على كل حال وكل قول، يصح أن جميع الناس هم من نفس واحدة هي الإنسانية التي كانوا بها ناسًا، وهي ما يتفق الذين يدعون إلى خير الناس وبرهم ودفع الأذى عنهم على كونها هي الحقيقة الجامعة، فتراهم على اختلافهم في أصل الإنسان يقولون عن جميع الأجناس والأصناف: إنهم إخوتنا في الإنسانية، فيَعُدُّون الإنسانية مناط الوحدة والألفة والتعاطف بين البشر. وهذا المعنى هو المراد من تذكير الناس بأنهم من نفس واحدة لأنه مقدمة للكلام في حقوق الأيتام والأرحام، وليس كلامًا مستقلا لبيان مسائل الخلق والتكوين بالتفصيل، لأن هذا ليس من مقاصد الدين.. ونفس الأمر أن الناس مخلوقون من الزوجين: الذكر والأنثى، وهما نفسان اثنتان سواء خُلقتا مستقلتين أم خُلقت إحداهما من الأخرى كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣][2].

وهكذا يجتهد الإمام في تحرير النص القرآني حول مسألة أصل الجنس البشري من كل التراث الأسطوري والديني الذي سبق الإسلام، والذي كان له تأثيره الواضح في كثير من رجال الفكر الإسلامي في فهمهم للنص القرآني. ولم ينته الأستاذ الإمام في تفسير النفس الواحدة التي أشار إليها النص القرآني إلا إلى دحض كل تأويل ثبوتي للنص، فاتحا بذلك مجالًا واسعًا من حرية البحث والتفكير أمام العقل والتطور العلمي على النحو الذي لا يوقع المتديّن في الحرج والتمزق والجمود والتحجُّر.

ويؤكد العلامة محمد حسين الطباطبائي صاحب «الميزان في تفسير القرآن» على اتجاه الأستاذ الإمام في تفسير آية النساء المذكورة، يقول: «وظاهر الجملة، أعني قوله ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أنها بيان لكون زوجها من نوعها بالتماثل وأن هؤلاء الأفراد المبثوثين

(١) وذلك مثل النحلة التي تلقح مرة واحدة ليستمر توالدها بعد إلى نهاية حياتها. ويذهب بعض علماء الطبيعة والبيولوجيا اليوم إلى أن الأنثى هي الأصل. انظر كتاب «الأنثى هي الأصل» لنوال السعداوي، وذلك بقطع النظر عن الجنوح بالأمر إلى محض عصبية أنثوية تركز جهدها في الانتصار لحقوق المرأة على حزب الرجال!!

(٢) تفسير المنار ٣٣١، ٣٣٢.

مرجعهم جميعًا إلى فردين متماثلين متشابهين؛ فلفظة «من» نشوئيةفي الآية، وفي مساق قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل: ٧٢].

وقوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١١].

ونظيرها قوله: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

فما ورد في بعض التفاسير من أن المراد من هذه الآية أن زوج هذه النفس مشتقة منها، وخلقها من بعضها وفقًا لما في بعض الأخبار: إن الله خلق زوجة آدم من ضلع من أضلاعه، هو مما لا دليل عليه في الآية[1].

* * *

أما الأحاديث النبوية التي تعرضت لخلق المرأة والتي يبدو أنها أوقعت كثيرًا من المفسرين في شبكات الإسرائيليات إذ حملوا ما ورد في القرآن من حديث عن النفس الأولى أصل النوع البشري من أن تلك النفس هي آدم وأن حواء خُلقت من ضلعه، وذلك فيما يبدو بسبب التشابه اللفظي بين قصة الخلق وخلق حواء كما وردت في التوراة وبين تلك الأحاديث مثل: «إن المرأة خُلقت من ضلع فإن ذهبت تقومها كسرتها وإن تدعها ففيها أود وبلغة» رواه أحمد والنسائي عن أبي ذر رضي الله عنه.

و«إن المرأة خُلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة فإن استمتعت بها، استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرُها طلاقها» رواه مسلم والترمذي عن أبو هريرة.

«إن المرأة خُلقت من ضلع وإنّك إن تُرد إقامة الضلع تكسرها فدارها تعش بها» رواه أحمد وابن حبان والحاكم في المستدرك[2].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، المجلد الرابع، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ لبنان.
(٢) الأحاديث الثلاثة أخرجها وصححها العلامة محمد ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع الصغير. منشورات المكتب الإسلامي.

إنه ليس في هذه الأحاديث ما يستدل به من قريب أو بعيد على تأييد ما ورد في كتب اليهود من أن حواء خُلقت من ضلع آدم، بل كل ما تضمنته توجيهات تربوية للرجال في التعامل مع النساء بالرفق والمودة بعيدًا عن العنف والعجرفة.

وقد جرت على عادة أسلوب العرب في التمثيل وتقريب المعاني المجرّدة في صياغتها في صورة حسية. يقول صاحب المنار في تفسير آية الأعراف: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]. والآية تدل على أن آدم كان له زوج أي امرأة، وليس ما في القرآن مثل ما في التوراة من أن الله تعالى ألقى على آدم سباتًا انتزع في أثنائه ضلعًا من أضلاعه فخلق له منها حواء، وأنها سُمِّيت امرأة لأنها من امرئ أُخذت، وما روي في هذا المعنى فهو مأخوذ من الإسرائيليات.

وحديث أبي هريرة في الصحيحين: «فإن المرأة خلقت من ضِلع» على حد خلق الإنسان من عجل بدليل قوله: «فإن ذهبتَ تقيمه كسرتَه، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا»، أي لا تحاولوا تقويم النساء بالشدة[1].

ولا يتردد الأستاذ سيد قطب، على حرصه الشديد على التزام المنهج السلفي، في تفسيره بالتأكيد على الاتجاه نفسه في هذه القضية يقول: «فالنص الذي معنا وأمثاله في القرآن الكريم لا يتحدث عن هذ الغيب بشيء. وكل الروايات التي جاءت عن خَلْقها من ضلعه مشوبة بالإسرائيليات، لا نملك أن نعتمد عليها، والذي يمكن الجزم به هو فحسب أن الله خلق له زوجًا من جنسه فصارا زوجين اثنين، والسنَّة التي نعلمها عن كل خلق الله هي الزوجية ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

فهي سنّة جارية، وهي قاعدة في كل خلق الله أصيلة، وإذا سرنا مع هذه السنَّة فإن لنا أن نرجِّح أن خلق حواء لم يمكث طويلًا بعد خلق آدم، وأنه تمّ على نفس الطريقة التي تم بها خلق آدم»[2].

* * *

---

(١) تفسير المنار ٣٣١، ٣٣٢.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مجلد ٣ ـ طبعة دار الشروق.

النتيجة

إنه ولئن ذهب أكثر المفسرين إلى تأول النصوص القرآنية المتعلقة بمسألة خَلْق آدم وزوجه عليهما السلام، إلى حسبان أن حواء مخلوقة من ضلع آدم حقيقة مسلّمة، فإن هذا التأويل وإن أمكن لتلك النصوص أن تتحمَّله، فإنها لا تقتضيه حتماً، بل هي تقتضيه كما تقتضي غيره. وإنما الذي ساقهم إلى هذا التأويل المنهج الذي اتبعوه في اعتماد التراث الإسرائيلي الديني (الإسرائيليات) في تفصيل ما أجمله القرآن من قصص، مع أن النصوص القرآنية والحديثية لم تفتأ تحذِّر من التلقِّي عن أهل الكتاب في أمر من أمور الدين. والذي دعم تأوّلهم ذلك ما ورد في حديث النبي ﷺ عن طبيعة المرأة من ألفاظ توحي بالشبه مع قصة الخلق، كما وردت في التراث اليهودي مثل عبارة الضلع الأعوج الذي خُلقت منه المرأة، ولم يذكر الحديث إطلاقًا أنه ضلع آدم، مما يستبعد معه أن يكون موضوع الحديث هو المسألة التشريعية بقدر ما هو حديث عن نفسية المرأة وخُلُقها، وإنما هو توجيه نبوي إلى ضرورة الرفق في التعامل معها، وتجنُّب الشدة والعنف. وذلك هو اللائق بالقائد في بيانه التوديعي للأمة (حجة الوداع) «أوصيكم بالنساء خيرًا»، والمناسب لسياق الخطبة كلها، التي كانت مجموعة توجيهات في الميدان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والخلقي، ولم تكن درسًا في العلوم الطبيعية والبيولوجية[1].

وعلى الرغم مما قد يبدو من تشابه بين حسبان حواء من ضلع آدم خُلقت، وبين حسبانها خُلقت من جنسه بعمل إلهي مباشر، فإن الفرق في الحقيقة مهم جدًّا بين التأويلين على الصعيد النظري والعملي. فإن الإلحاح ومن دون دليل حاسم على التأويل الأول للنص القرآني لا يحمل ـ بشكل واع أو غير واع من أصحابه ـ إلا تكريس تبعية المرأة للرجل على الصعيد الاجتماعي وانمحاء شخصيتها وذوبانها في شخصيته وتكريس التميُّز والأفضلية على أساس الجنس مما يتنافى مع مقاصد الشريعة.. على حين أن التأويل الثاني

(١) يرى المفكر الإيراني اللامع الأستاذ علي شريعتي أن القرآن أكد في مسألة الخلق على وحدة المادة التي خلق منها النوع الإنساني، نفيًا للفكرة المقابلة التي تؤكد ـ كما فعل الفيلسوف الألماني نيتشه ـ على اختلاف مادة الخلق الأولى، أما القرآن فيقول بأن الله خلق المرأة من طبيعة الرجل (آدم) أي إن الرجل والمرأة من طبيعة واحدة، «هكذا تكلم علي شريعتي»، ٢٢٤. تأليف فاضل رسول، دار الكلمة والنشر. ط٢ بيروت ١٩٨٣.

فضلًا عن مستنداته اللغوية الوجيهة وتساوقها مع جملة النصوص الواردة في الكتاب حول هذه القضية، هو تأصيل لمفهوم إسلاميٍّ وإنسانيٍّ أساسيٍّ، ناضلت الحركة النسائية المعاصرة طويلا من أجل تحقيقه، ألا وهو تحقيق استقلال شخصية المرأة وتحمُّلها مسؤولية وجودها ومصيرها كاملًا. والقضاء على أول وأقدم اضطهاد للإنسان من أخيه الإنسان على أساس الفوارق الجسمية خطوةٌ أساسية للقضاء على كل تمييز يقوم على أساس العِرْق والعنصرية والاضطهاد، فيقوم على أساس العمل الصالح ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وهو مقصدٌ أساسيٌّ للشرع الحنيف ولنضال الشعوب والطبقات المضطهدة منذ آلاف السنين.

* * *

الحلقة الثانية

﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾

قصةُ الخَلْق الأولى والدخول إلى الجنة، وإذْنِ الرب لآدم وزوجه بالتمتُّع بالطيبات عدا شجرة واحدة، وإغواء الشيطان، والوقوع في الخطيئة، والهبوط إلى الأرض، هي فصولٌ أساسية في الكتب المُنَزَّلة، بل في كثير من الأدبيات الدينية والفلسفية عامة، بشكل صريح، كما هو الحال في القرآن وكتب اليهود والنصارى، أو بشكل رمزي كما وردت في فلسفة المُثُل عند أفلاطون. وعلى الرغم من أن موضوع تلك القصة متشابه، فإن دلالاتها ومقاصدها متباينة. ولتبيين ذلك يكفي أن نورد بعض النصوص المتعلِّقة بهذه القصة في القرآن وكتب اليهود والنصارى.

جاء في الإصحاح الثالث من سفر التكوين:

«وكانت الحية أَحْيَل جميع حيوانات البريَّة... فقالت للمرأة: أحقًّا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمسَّاه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة: لن تموتا. بل الله عالم أنه يوم تأكلان منها تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر. فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضًا معها فأكل، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر. وسمعا صوت الرب الإله ماشيًا في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة، فنادى

الرب الإله آدم، وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيتُ لأني عريان فاختبأت. فقال مَنْ أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت... فقال الرب الإله للحية: لأنكِ فعلتِ هذا ملعونة أنتِ من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وترابًا تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه. وقال للمرأة: تكثيرًا أكثّر أتعاب حَبَلك، وبالوجع تلدين أولادًا، وإلى رَجُلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك.. وقال لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلًا: لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كلّ أيام حياتك، وشوكًا وحَسَكًا تنبت لك وتأكل عشب الحقل. بعرق وجهك، تأكل خبزًا حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك ترابٌ وإلى ترابٍ تعود».

ونسجت على المنوال نفسه كتب العهد الجديد، فقد ورد في الإصحاح الحادي عشر من كتاب كورنثوس الثاني:

«ولكني أخاف كما خدعت الحية حواء بمكرها هكذا تُفْسَد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح».

ومن الإصحاح الثاني: «إن آدم لم يغو، ولكن المرأة أغويت فحصلت في التعدّي».

أما القرآن الكريم فقد عرض القصة من زوايا مختلفة يقع التركيز في كل مرة على جانب أكثر من غيره.

ورد في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٣٤) وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ (٣٦) فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧) قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٩].

ومن سورة الأعراف: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٩) فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ (٢١) فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف: ١٩ ـ ٢٢].

المقارنة

ونقف في المقارنة بين هذه القصة كما وردت في العهدين القديم والجديد وكما وردت في القرآن عند بعض النقاط.

من حيث السياق، وردت القصة في أسفار أهل الكتاب في معرض الإدانة واللعن وغضب الرب. بينما وردت في القرآن في معرض التكريم العلوي للنوع الإنساني: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾... ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾.

- يرد الحديث عن الشجرة في التوراة والأناجيل بوصفها رمزًا للمعرفة التي يتوق البشر إليها، ولكن الإله يمنعه منها ليبقى جاهلًا مغمض العينين، وما يحصل على تلك المعرفة إلا بمعصية الرب، فيكون جزاؤه اللعن والطرد من رحمة الله لينزل إلى الأرض مغضوبًا عليه مطرودًا، تلاحقه اللعنات فيشقى.. بينما تُمثل الشجرة في قصة آدم في الجنة أداة لاختبار إرادة الإنسان وتدريبه على التحكم في إرادته بوصفه عنصرًا أساسيًا من تنظيم سلوكه، ولما هو مقدم عليه من التنظيم الاجتماعي.

• أما المعرفة فهي هبة من الله للإنسان وتكريم له: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾، بهذا الإطلاق الدال على الإمكانات غير المحدودة للتعلم التي أعطيها الإنسان، والتي هي السبيل لمعرفة الخالق ولتسخير طاقات هذا الكون والتطور غير المحدود.

إنه بالعلم سجدتْ له الملائكة وسُخِّرت لخدمته، وبالعلم يُسخَّر الكون كله لخدمته، وللنهوض بأمانة الحريات والمسؤولية والإرادة من أجل تحقيق أقصى الكمال الإنساني، ممَّا يجعل الوجود الإنساني على الأرض ليس بسبب غضب الإله ولعنة منه حلّت بالإنسان نتيجة الخطيئة الأولى، وإنما لغاية إلهية. ويعبر القرآن عن هذه الغاية بالخلافة، وهي الغاية الإلهية التي أفصحت عنها لحظة الإعلان الإلهي عن هذا الموجود الجديد ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

هذا الموجود الذي كُرِّم بالعقل والإرادة والحرية أدواتٍ نضالية لتحقيق الكمال الإنساني عبر الكدح الناصب والصراع المرير لاكتشاف الذات والطبيعة والسيطرة عليهما وتطويرهما ضمن المشروع الإلهي (الدين) وإقامة مجتمع الحق والعدل والحرية واجتثاث الطغيان والاستغلال.

وبقدر النجاح الذي يحققه هذا الموجود في نضاله من أجل تحقيق ذلك المشروع وتجسيده على المستوى الفردي والاجتماعي والكون عامة، بقدر ما ترتقي إنسانيته ويتحقق كماله ويتهيَّأ لحياة الخلود في نعيم أبدي مقيم ما كان هُيِّئ له أول مرة، بل كانت حياته هناك مجرّد تجربة ظلَّت ذاكرته تحتفظ بها بصورة مشرقة تحفزه ذكراها إلى مزيد من النضال ضد الأسباب التي أدت به إلى الحرمان منها مثل الاستماع إلى وساوس الشيطان ومطاوعة أهواء النفس واندفاعاتها ومخالفة أوامر خالقه.

إنه يكدح على الأرض وروحه ترنو إلى هناك.. إلى الجنة، وكلما ازداد حنينه إلى هناك ازداد كفاحه ضد الباطل والظلم والاستغلال والضياع هنا.. وليس عليه إذا وقع في الخطأ إلا أن يراجع نفسه ويُخْلِص توبته كما فعل في أوَّل معصية له.

على حين تؤكد أسفار العهد القديم كالجديد على المرأة بوصفها عنصر إغواء، أغوتها الحية وأغرتها بالأكل من الشجرة المحرَّمة من أجل أن تصبح هي وزوجها عارفين بكل شيء خالدين لله، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضًا معها فأكل منها

وانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان، حتى إذا تلقى آدم لومًا من ربه على عصيانه إيَّاه لم يتردّد في تحميل حواء مسؤولية إغوائه، فتعرضت بذلك إلى العقاب الإلهي فقضي عليها بألم الحمل والولادة وإخضاعها لزوجها.

أما آدم فلأنه استمع لكلام زوجته فأكل من الشجرة فقد قضي عليه بالعيش الضنك طوال أيام حياته ولُعنت الأرض بسببه.

أما الأناجيل فتذهب أبعد من ذلك في تحميل حواء عبء الخطيئة وتبرئة آدم منها: «إن آدم لم يغو، ولكن المرأة أغويت».

ولا عجب أن تترسخ في هذه البيئات التي سادت فيها هذه العقائد حول المرأة تصوُّرات تقوم على احتقارها والتشاؤم منها وعَدِّها أحبولة الشيطان ومصدر كل بلاء ومصيبة، والنظر للعلاقات الجنسية باشمئزاز لاقتران هذه العلاقة بالخطيئة. وليست الرهبنة إلا تعبيرًا صريحًا عن احتقار العلاقات الجنسية وحُسبانها دنسة مُغْضِبة للرب. ولا عجب بعد ذلك أيضًا أن يبلغ هذا الاحتقار حد عقد المجامع في الكنيسة لمناقشة ما إذا كان للمرأة روح أم لا، فينتهي النقاش الطويل حول هذه المسألة في القرن السادس عشر في فرنسا إلى الإقرار بأن للمرأة روحًا ولكنها روح شيطانية!

على حين تُفصِّل كتب اليهود والنصارى ذلك، نرى قصة الخلق في القرآن حول المرأة تؤكد على اشتراكها في التكريم الإلهي كزوجها: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾. وتتلقى مثله الأمر بالامتناع عن الأكل من شجرة معينة، وتقع مثله في إغواء الشيطان: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٠]، ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]، فتتجه هي وزوجها بقلب خاشع قد عضه الندم وصح منه العزم على التوبة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وقد لا يُذْكَر في القصة في بعض المواطن إلا آدم دون حواء، إذ إن المراد بآدم ـ كما يقول صاحب تفسير المنار ـ النوع الآدمي على الشمول، وعلى أن استعداد المرأة كاستعداد الرجل في جميع الشئون البشرية. إنه تعالى خلق البشر ذكورًا وإناثًا، وأَمْرُهما بالأكل حيث

شاءا عبارة عن إباحة الطيبات وإلهام معرفة الخير، والنَّهْي عن الشجرة عبارة عن إلهام معرفة الشر، وتوبة الله تعالى عليه عبارة عن هدايته إلى المخرج من الضيق. وذكر توبة الله على الإنسان تردُّ ما عليه النصارى من اعتقاد أن الله تعالى قد سجَّل معصية آدم على بنيه إلى أن يأتي عيسى ويخلصهم منها(1).

فالمسئولية فردية ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩]. وعلى الرغم من أنه ليس في القرآن ولا في الحديث حول قصة آدم وزوجه ما يؤكد أو يشير حتى مجرد إشارة إلى تصورات أهل الكتاب حول الخطيئة وتحميل حواء وحدها مسؤوليتها، فقد حفلت كتب كثير من المفسرين القدامى بروايات مسندة إلى أهل الكتاب، ومن أسلم منهم بخاصة مثل وهب بن منبه. نقل مثلًا إمام المفسرين أبو جعفر الطبري روايات لا أصل لها سوى كتب اليهود والنصارى، مع أن النهي صريح في عدم التلقي عنهم في أمر ديننا. أما القرطبي فقد نقل عن مجهولين أن أول من أكل من الشجرة حواء بإغواء إبليس إياها، وأن أول كلامه كان معها لأنها وسواس المحنة، وهي أول فتنة دخلت على الرجال من النساء(2).

وتسرُّب هذه الإسرائيليات إلى كتب التفسير يدل على مدى تغلغل التراث الإسرائيلي والمسيحي في الفكر الإسلامي، وفي مكوناته الثقافية والتربوية مما كان له أبلغ الأثر في التصورات الخاطئة عن المرأة التي تلبَّست بلبوس الإسلام، وغدت أداة تحقير للمرأة وأداة هدم في بنائها الحضاري جملةً ـ تبعًا لذلك ـ.

أما الأستاذ سيد قطب فقد قدم في ظلاله القرآنية من خلال قصة آدم وزوجه تصورًا كاملًا للإنسان وللعلاقات البشرية ولمنهج المعرفة في الإسلام نقتطف منه هذه المقتطفات:

لقد قال الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.. «وإذن فآدم مخلوق لهذه الأرض من اللحظة الأولى، ففيم إذن كانت الشجرة المحرّمة؟ وفيم إذن كان بلاء آدم؟ وفيم إذن كان الهبوط إلى الأرض وهو مخلوق لهذه الأرض من اللحظة الأولى؟».

---

(1) تفسير المنار، ١/ ٢٨٢، ٢٨٣.

(2) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٠٧.

«لعلني ألمح أن هذه التجربة كانت تربيةً لهذا الخليفة وإعدادًا. كانت إيقاظًا للقوى المذخورة في كيانه، كانت تدريبًا له على تلقي الغواية، وتذوُّق العاقبة وتجرُّع الندامة ومعرفة العدو، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين».

«إن قصة الشجرة المحرمة ووسوسة الشيطان باللذة ونسيان العهد بالمعصية والصحوة من بعد السكرة والندم وطلب المغفرة.. إنها هي هي تجربة البشرية المتجددة المكرورة!

لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته مزودًا بهذه التجربة، التي سيتعرَّض لمثلها طويلًا، استعدادًا للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيرًا»[1].

وليس عجبًا، أخيرًا بعد أن تحوَّلت المرأة من موضوع للخلق المباشر يوحي باستقلال شخصيتها مثل آدم إلى مجرد تابع من توابعه أو ضلع من أضلاعه، أن تتحوَّل ضمن البوتقة الخاضعة لتأثير الثقافة اليهودية المسيحية الآفلة من مُخاطَب كُفء للتلقِّي عن ربها على قدم المساواة مع زوجها ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾.. ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾.. أن تتحوَّل ضمن البوتقة نفسها إلى مصدر وحيد للإغواء والفتنة وأحبولة للشيطان، لا عجب أن تُنتقص المرأة تحت تأثير القداسة المزعومة وتأثير التربية والضغوط الاقتصادية الدور الذي أُعِدَّت له لا كشريكة في مهمة الخلافة عن طريق النضال المتواصل لترويض طبيعتها والوجود من حولها من أجل الدفع نحو أقصى الكمالات الإنسانية على المستوى الذاتي والمستوى الاجتماعي والإنساني، أن تهون في عين نفسها فما ترتفع في نظر نفسها عن كونها جسدًا ليس لها من همٍّ إلا أن تعكف على صقله وتنميقه وتطييبه لتوهم حقيقة بأنها فتنة وأحبولة للشيطان، وممن؟ من طرف من هيَّأها ولا يزال لذلك الدور..

والأعجب من كل ذلك أن يُنسب ذلك المسخ للإسلام وما هو في الحقيقة إلا خطَّة قوى الاستبداد والاستغلال لإلهاء الجماهير المستضعفة عن همومها ومسؤولياتها الجهادية من أجل العدل والتحرُّر.

* * *

(١) في ظلال القرآن ١/ ٦١، دار الشروق.

الحلقة الثالثة

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٥ ـ ٣٧].

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢].

من مظاهر تكريم الإسلام للنساء إعادة الاعتبار لهن بوصفهن كائنات إنسانية حرّة ومسؤولة، ورفع آصار وأغلال قرون الظلم الطويلة التي رزحن تحتها. من مظاهر ذلك تنويه القرآن والحديث بمجموعة كبيرة من النماذج النسائية في مختلف الميادين التعبُّدية والسياسية والاجتماعية والجهادية.. ولعل أهم هذه النماذج على الإطلاق في تاريخ الملحمة الدينية النسائية مريم عليها الصلاة والسلام، فقد اصطفاها الله على نساء العالمين بإطلاق يشمل الزمان والمكان كله، بل إنها كما قال عليه السلام: «سيدة نساء أهل الجنة»[1]. مجّدها القرآن الكريم بهذا التكريم الإلهي الرائع: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ

(١) ذكره القرطبي في جامعه ٤/ ٨٤.

عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾، وبلغت درجة من الصلاح والتعبُّد أن ناداها قومها ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾ [مريم: ٢٨]، على الرغم من تباعد الزمن بينها وبين هارون، وعدم وجود نسب غير النسب الروحي والمشابهة بين هذه الفتاة العابدة وبين النبي هارون، وقد كان مضرب الأمثال في الصلاح والعبادة عند بني إسرائيل. ولقد حققت بولادتها ونشأتها معجزات تُوِّجَتْ بأعجب حدث في تاريخ التناسل البشري ليس له من نظير غير قصة الخلق الأولى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

كانت بشارة مريم بحملها عيسى عليه السلام، وهي العابدة الطاهرة البكر التي تربت على يدي نبي في محراب العبادة والتُّقى، امتحانًا رهيبًا ما كان ليغيّر شخصيتها الفذة أن تنوء تحته وتُسحق: ﴿يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٨].. وتحققت بذلك أمنية أم مريم بأكبر ما كانت تأمل، فغدت ليست مجرد أُم لسادن معبد بل أمًّا لمرشد من أكبر مرشدي البشرية.. لقد كانت ولادتها مفاجأة كبرى لأمها، مفاجأة «غير سارة» لكونها بنتًا، إذ إن الأم الصالحة التي يبدو أن العمر قد تقدم بها من دون أن تُنجب قد نذرت إن هي ولدت ولدًا فإنها تهبه محرَّرًا لخدمة المعبد لا يشغله عن ذلك شاغل من شواغل الدنيا..

وقد استقر في خلدها أن تلد ولدًا ذكرًا ولعلها بُشِّرت بذلك.. فلما جاء المولود أنثى أبدت شديد الأسف والحسرة والأسى على ما فاتها من الوفاء بنذرها: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٦].

ولقد انتزع البعض هذه الكلمات من إطارها، فأخذ كثير من المفكرين قوله تعالى ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ فتكلفوا في توجيه تقديم الذكر على الأنثى[1].. بينما وردت هذه الكلمات في سياق تكريم الأنثى ودعوة امرأة عمران إلى نبذ الهواجس وضروب الأسى التي ملأت قلبها وهي تُفْجَع في الأمل الذي تعلقت به طويلًا، أن يكون لها ولد تتنازل

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٧٢.

عن حقها فيه وتفرّغه لخدمة المعبد، فإذا بالأمل يتبخر في لحظة! فما عساها تُجدي الأنثى في وظيفة هي عادة من وظائف الرجال؟!

ولكنها لم تملك وقد فُجعَتْ في أملها إلا أن تشكو إلى ربها أساها وحسرتها: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، والله سبحانه قطعًا عَلمَ بما وضعت، فأُجيبَتْ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ (بكسر التاء) [وضَعْتِ] أو ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ (بتسكين التاء)، تعقيبًا من الله على قولها لبيان أن الله يعلم قيمة وأهمية ما وضعت، وهي لا تعلم، ولو علمت لاستيقنت أن الله سيحقق عن طريق هذه الأنثى ما كانت تتمناه بأحسن وجه وأرضَى طريق.. ولو كانت تعلم ما أراده الله لها لم تحزن ولم تتحسر، فليس الذكر الذي طَلَبَتْه كالأنثى التي أُعْطِيَتْها، بل هذه الأنثى خير مما كانت ترجو من الذكور.

يقول صاحب الكشاف في تفسير هذه الآية: «فإن قلت: فلم قالت: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وما أرادت إلى هذا القول؟ [أي وما أرادت من إعلام الله بذلك؟]، قلت: قالته: تَحَسُّرًا على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها، فتَحَزَّنَتْ إلى ربها، لأنها كانت ترجو وتقدّر أن تلد ذكرًا، ولذلك نذرته محرَّرًا للسَّدانة.. ولتكلُّمها بذلك على وجه التحسُّر والتحزّن، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ تعظيمًا لموضوعها وتجهيلًا لها بقدر ما وهب لها منه»... «فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾؟ قلت: هو بيان لما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ من التعظيم للموضوع والرفع منه، ومعناه: وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لك»؛ فما لك تتحسرين وقد أُعطيت أنثى هي خير من الذكر الذي كنت تطلبين، فليس لتحزُّنك وأسفك من سبب غير الجهل بقيمة هذا المولود وما أودع فيه من أسرار وعجائب ومعجزات، وما سيترتب عن ذلك من تغير في الأنفس والآفاق وفي المصير البشري جملة، وذلك نظير قوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فما ينبغي للمؤمن وهو يسير على هدى من ربه أن يتحسر على شيء ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٣].

فما يفعل الله به وله في المحصِّلة النهائية إلا ما هو أمثل له..

ولم تلبث هذه المناجاة من أم مريم لربها أن أورثتها سكينة في القلب ورضا بما قدّر الله لها، فبادرت إلى تسمية هذه الوليدة «مريم»، قيل بمعنى: العابدة، وسألت لها الله أن يكون في رعايتها وذريتها، فاستجاب لها ربها وأنشأها على يد أحد أنبيائه الكرام في محراب العبادة هو أحد أقاربها زكريا، بعد أن تنازع على تربيتها كبار أحبار المعبد، وظهرت على يدها عجائب في الدلائل على صلاحها وتقواها ورعاية الله لها.

وأفاض عليها ربها من صنوف الخيرات ما استلفت نظر كافلها النبي زكريا وعجب لأمرها، فسألها عن هذه الخيرات التي استفاضت من حولها فما زادت على أن قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧]، بكل خشوع وتواضع وإخلاص، مما أغراه ـ وقد رأى رأي العين خيرات الله ونعمه تفيض ـ أن يتوَجَّه إلى ربه المنعم بكل هذه النعم أن يُنعم عليه هو أيضًا بما هو في لهفة إليه: أن يكون له وهو الشيخ الهرم ولد يخلفه ويُؤْنسه.

حتى إذا اكتملت إيمانًا وصديقية نادتها الملائكة تُبشرها باصطفاء الله لها على نساء العالمين من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة(١). وأن الله طهرها من الرجس الذي يغرق فيه قومها، وبرّأها مما سيرميها به قومها من الافتراءات لكي تتهيأ لتلقِّي أمر الله المباشر ﴿كُن﴾ كما تلقاها الطين الذي جُبل عليه أول إنسان (آدم): ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.. لكي تتهيأ لذلك الامتحان العسير، أوحى إليها ربها بطول القيام والركوع والسجود مع المصلين في المعبد وقد كانت ملازمة لمحرابه(٢)، كما أُمِرَ النبيون من قبلها ومن بعدها وهم يتهيَّئون لتلقي كلمات الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ١ ـ ٤].

وهكذا تهيأت لذلك الحدث العظيم لحمل عيسى (كلمة الله وروح من خلقه)، وتهيأت بإيمانها وقوة شخصيتها لمجابهة مجتمع كامل يرميها وهي الطاهرة المطهرة في أعز ما تملكه الأنثى، في طهارتها وشرفها. ولكنها تصبر وتدأب على رعاية ابنها وتربيته وإعداده للأمر العظيم الذي سينهض به لاستنقاذ قومه من وَحْلهم وسقوطهم.

---

(١) تفسير المنار ٣/ ٣٠٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٨٣.

وإن الاقتران المتواصل في القرآن بين المسيح وأمه مريم ليست دلالته الوحيدة سلبية ـ أي نفي العقائد المنحرفة في عيسى أنه ابن الله ـ بل له دلالة إيجابية هي تكريم مريم عليها السلام، بل تكريم كل امرأة من خلالها تكريماً بما لم تكن النساء يحصلن عليه من شرف خدمة المعبد فقد كانت مهمة خاصة بالرجال[1]، وكأن النساء رجس لا يحق لهن الاقتراب من المواطن الطاهرة، وتكريماً بمخاطبة الملائكة وتلقِّي الوحي من الله، وتكريماً بتلقي كلمة الخلق المباشر ﴿كُن﴾ تلك الكلمة التي خُلِق بها آدم في أول قصة الخلق، فكان خَلْق عيسى في رحم أمه بنفس الكلمة، بنفس الطريقة، وتكريماً بعد كل ذلك بتكليفها وحدها بتربية رسول من أولي العزم من الرسل، وتشريفًا بنسبة عيسى إليها ونسبتها إليه حيث ينتسب غيره إلى الرجال بينما دُعي هو إلى أمه من دون أن يكون في ذلك أي غضاضة عليه.

نبوّة مريم ونبوّة النساء

شغلت هذه المسألة أذهان كثير من العلماء حتى جعلوا منها قضية يدور الجدل حولها بين متبنِّين ورافضين، وكأنَّ هؤلاء الرافضين لنبوَّة النساء ـ على الرغم من أنهم قلة كما ذكر الإمام القرطبي ـ قد استكثروا على النساء هذه المرتبة.

وكأن كل فضيلة في الرجال هي سيِّئة في حق النساء كما صرَّح بعضهم[2]، مع أن التساوي في النوع الإنساني ذكوره وإناثه أصل لا حياد عنه إلا بدليل قاطع، وجُلُّ ما تعلق به نُفاة النبوة عن النساء مجرد تأوُّلات للمتشابه من القرآن مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾ [المائدة: ٧٥].

يقول الفخر الرازي في تفسيره: «اعلم أن مريم عليها السلام ما كانت من الأنبياء لقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وإذا كان ذلك كان إرسال جبريل عليه السلام إليها إما أن يكون كرامة لها وهو مذهب من يجوِّز كرامات الأولياء، أو إرهاصًا لعيسى عليه السلام وذلك جائز عندنا... أو معجزة

---

(١) كان للنساء مساهمة في تنظيف المسجد في عهد الرسول عليه السلام.

(٢) نسب بعضهم إلى الإمام علي رضي الله عنه قوله: «شر خصال الرجال خير خصال النساء».

لزكريا عليه السلام وهو قول جمهور المعتزلة. ومن الناس من قال: إن ذلك كان على سبيل النفث في الروع والإلهام والإلقاء في القلب، كما كان في حق أُمِّ موسى عليه السلام في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧][١].

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد ذكر أن القاضي أبا يعلى وأبا المعالي وغيرهما، أنه قد انعقد الإجماع على أنه ليس في النساء نبية، والقرآن والسنة دلا على ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩] وقوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥] ذكر أنه غاية ما انتهت إليه أمه الصِّدِّيقيَّة[٢].

وما تمسك به نُفاة النبوة عن النساء لا ينهض حُجَّة مقنعة في إثبات ما ذهبوا إليه. فقد ذهب أكثر من مفسر إلى أن «رجالًا» في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ لا تدل على الجنس (الذكور) وإنما تدل على النوع الإنساني.

يقول صاحب «التحرير والتنوير» في تفسير الآية: «والرجال اسم جنس جامد لا مفهوم له، وأطلق هنا مرادًا به «أناسًا» كقوله ﷺ: «ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»، أي إنسان أو شخص، وليس المقصود به الاحتراز عن المرأة.. وليس تشخيص الرجال وأنهم من أهل القرى لقصد الاحتراز عن النساء ومن أهل البادية، ولكنه لبيان المماثلة بين من سلموا برسالاتهم وبين محمد ﷺ حين قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]. وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٤٨]، أي فما كان محمد ﷺ بدعًا من الرسل حتى تبادروا بإنكار رسالته وتعرضوا عن النظر في آياته. فالقصر ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا﴾ إضافي، أي لم يكن الرسل عليهم السلام قبلك ملائكة أو ملوكًا من ملوك المدن الكبيرة، فلا دلالة في الآية على نفي إرسال رسول من أهل البادية مثل خالد بن سنان ويعقوب عليه السلام حين كان ساكنًا في البدو[٣].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٤/ ٣٨، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٤/ ٣٩٦ مطاب الرياض.

(٣) تفسير التحرير والتنوير: سماحة الإمام الشيخ م. الطاهر بن عاشور ١٣/ ٨٦، الدار التونسية للنشر.

[آل عمران: ٤٢] يذهب الشيخ ابن عاشور إلى أن «الاصطفاء الأول اصطفاء ذاتي وهو جعْلُها منزَّهة زكية، والثاني بمعنى التفضيل على الغير. ونساء العالمين نساء زمانها أو نساء سائر الأزمنة. وتكليم الملائكة والاصطفاء يدلان على نبوتها والنبوة تكون للنساء دون الرسالة»[١].

ويؤكد الإمام القرطبي في جامعه إلى أن «ظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع نساء العالم من حواء إلى امرأة تقوم عليها الساعة، فإن الملائكة قد بلغتها الوحي عن الله عز وجل بالتكليف والإخبار والبشارة كما بلغت سائر الأنبياء، فهي إذن نبية، والنبي أفضل من الوليّ، فهي أفضل من كل النساء الأولين والآخرين مطلقًا»...

«وقد خصّ الله مريم بما لم يؤته أحدًا من النساء، وذلك أن روح القدس كلمها وظهر لها ونفخ في دِرْعِها ودنا منها للنفخة، فليس هذا لأحد من النساء، وصدَّقت بكلمات ربها ولم تسأل آية عندما بُشِّرت كما سأل زكريا ﷺ من الآية، ولذلك سمَّاها الله في تنزيله صدِّيقة فقال: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ وقال: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، فشهد لها بالصدِّيقية وشهد لها بالتصديق بكلمات البشرى وشهد لها بالقُنوت. وعندما بشر زكريا بغلام لحظ إلى كبر سنِّه وعُقم رحم امرأته فقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠] فسأل آية. وبُشرت مريم بالغلام فلحظت أنها بِكْرٌ ولم يمسسها بشر فقيل لها: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [مريم: ٩]، فاقتصرت على ذلك وصدقت بكلمات ربها ولم تسأل آية ممن يعلم كُنْه هذا الأمر. ومن لامرأة في جميع نساء العالمين من بنات آدم ما لها من هذه المناقب! ولذلك رُوي أنها سبقت السابقين مع الرسل إلى الجنة. جاء في الخبر عنه ﷺ: «لو أقسمتُ لبررتُ، لا يدخل الجنة قبل سابقي أمتي إلا بضعة عشر رجلًا منهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومريم بنة عمران»، وقد كان يحق على من انتحل علم الظاهر واستدل بالأشياء الظاهرة على الأشياء الباطنة أن يعرف قول رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد

(١) تفسير التحرير والتنوير ٣/ ٢٤٤.

آدم ولا فخر»، وقوله: «لواء الحمد يوم القيامة بيدي ومفاتيح الكرم بيدي وأنا أوّل خطيب وأول شفيع...»، فلم ينل هذا السؤدد في الدنيا على الرسل إلا لأمر عظيم في الباطن. وكذلك شأن مريم لم تنل شهادة الله في التنزيل بالصِّدِّيقيَّة والتصديق بالكلمات إلا لمرتبة قريبة دانية. ومن قال: لم تكن نبيّة، قال: إن رؤيتها للملَك كما رؤي جبريل عليه السلام في صفة دِحْيَة الكلبي حين سؤاله عن الإسلام والإيمان، ولم يكن الصحابة بذلك أنبياء. والأول أظهر وعليه الأكثر [أي أكثر العلماء] والله أعلم».

«ولا شك أن أكمل نوع إنساني الأنبياء، ثم يليهم الأولياء من الصدِّيقين والشهداء والصالحين. وإذا تقرَّر هذا فقد قيل: إن الكمال المذكور في الحديث: «كَمُلَ من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون»، يعني به النّبوَّة، فيلزم عليه أن تكون مريم بنت عمران وآسية نبيتين وقد قيل بذلك. والصحيح أن مريم نبية لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيين»(1).

وأهم الأئمة الأعلام الذين تناولوا هذه المسألة بعمق وتوسُّع أبو محمد بن حزم في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، حيث عقد فصلًا خاصًّا بعنوان «نبوة النساء» ننقل إليك أخي القارئ أهم ما جاء فيه. ولقد بدأ أبو محمد بحثه في هذه المسألة بتعجُّبه من إثارة هذه المسألة في قرطبة، بينما لم تشهد مدائن الإسلام الأخرى جدلًا مماثلًا، يقول: «هذا فصل ما حدث التنازع العظيم بشأنه إلّا عندنا بقرطبة وفي زماننا، فإن طائفة ذهبت إلى إبطال كون النّبوة في النساء جملة، وبدّعت من قال بذلك، وذهبت طائفة إلى أنه قد كان في النساء نبوة، وذهبت طائفة إلى التوقف في ذلك».

وينطلق ابن حزم في حسم النزاع في تحليل معنى النبوة وهي مأخوذة من الإنباء وهو الإعلام.. فمن أعلمه الله عز وجل بما يكون قبل أن يكون، أوحى إليه منبئًا له بأمر ما فهو نبي بلا شك، وليس هذا من باب الإلهام الذي هو طبيعة لقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل: ٦٨]، بل الوحي الذي هو النبوة «قصد» من الله تعالى إعلام من يوحي إليه.. علمًا ضروريًّا إما بمجيء الملك إليه، وإما بخطاب يخاطب به في نفسه دون وساطة. فإن أنكروا أن يكون هذا هو معنى النبوة فليعرِّفونا معناها، فإنهم لا يأتون

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٨٣، ٨٤.

بشيء أصلًا. فإن كان ذلك كذلك فقد جاء القرآن بأن الله عز وجل أرسل ملائكته إلى نساء فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى، فبشروا أم إسحاق بإسحاق ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ﴾ [هود: ٧١-٧٣]. ولا يمكن أن يكون هذا الخطاب من ملك لغير نبي بوجه من الوجوه، ووجدناه تعالى قد أرسل جبريل إلى مريم أم عيسى وقال لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩].

فهذه نبوَّة صحيحة بوحي صحيح ورسالة من الله تعالى إليها، وجدنا أم موسى عليها الصلاة والسلام وقد أوحى الله إليها بإلقاء ولدها في اليم فصحّ يقيننا أن الوحي الذي ورد لها في إلقاء ولدها في اليم كالوحي الوارد على إبراهيم في الرؤيا في ذبح ولده، فصحَّت نبوتهن جميعًا بيقين. وقد ذكر من الأنبياء عليهم السلام في سورة «كهيعص» ذكر مريم في جملتهم ثم قال عز وجل: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [مريم: ٥٨].

وهذا هو عموم لها معهم لا يجوز تخصيصها من جملتهم، وليس قوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥] بمانع أن تكون نبيّة، فقد قال تعالى ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦] وهو مع ذلك نبيٌّ رسول. وهذا ظاهر وبالله التوفيق.

ويلحق بهن عليهنّ السلام في ذلك امرأة فرعون. يقول رسول الله ﷺ: «كَمُلَ من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسيا بنت مزاحم امرأة فرعون»، والكمال في الرجال لا يكون إلا لبعض المرسلين، لأن مَنْ دونهم ناقص عنهم بلا شك، وكان تخصيصه ﷺ مريم وامرأة فرعون تفضيلًا لهما على سائر من أوتين النبوة من النساء بلا شك[1].

وبعد:

ماذا يستفيد المسلم اليوم من طرح قضية نبوة المرأة وقد تم ختم النبوة بظهور النبي

---

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٣/ ١٩١٧، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

الخاتم محمد ﷺ؟ أليس الخوض في هذه المسألة جملة ضربًا من الجدل المبدِّد للطاقة؟ أليس ذلك هو السبب في انصراف الإسلاميين المعاصرين عن هذا البحث؟ إن الأمر قد يبدو لبادي الرأي كذلك، وما هو كذلك، فإن أمة مثل أمتنا لا يزال التراث (إنتاج الماضي) يمثل أحد المؤثرات الفعالة في واقعها بعيدًا جدًّا أن يحدث فيها أي تحوُّل ثوري من دون تمحيص جاد لذلك التراث، يمتحن مفاهيمه ليدعم منها ما كان تعبيرًا عن الحقيقة الإسلامية المطلقة ويوظفه في عملية التحوّل الثوري، ويوهن ويُسفِّه ما كان ثمرة لقصور عصر من العصور وتخلفه وانحطاطه، ولكنه في غياب النقد الجاد ظل يعامل كجزء من الحقيقة الإسلامية المطلقة في قدسيتها وأحقِّيتها في توجيه العقول والمشاعر والأذواق والمسالك والتنظيمات.

وإن من أهم الموضوعات التي لا يزال الإسلاميون يتعاملون معها من خلال الخلط بين الحقيقة الإسلامية والحقيقة التراثية موضوع المرأة، فيتعرفون على الموقف الإسلامي في هذه القضية وغيرها بالرجوع إلى كتب التفسير والفقه آخذين محتوياتها وكأنها ناطق رسمي باسم الحقيقة الإسلامية المطلقة، فيتحول التراث من كونه عامل تنوير للواقع في اتجاه الإسلام إلى معوق أساسي دون عملية التحول تلك، وتذهب جهود الدعاة أو كثير منهم هدرًا، بل يتحول عملهم إلى عامل استمرار للماضي في الحاضر ودعم إلى هذا الحاضر الذي نتألم من استمراره ونطمع إلى تغييره ويأخذنا الوجوم والاندهاش من صلابته وتأبيه كل تحول.

* * *

الخلاصة

إن ما انتهينا إليه من تأملات حول النصوص الواردة في هذه القضية وما دار حولها من جدل يتلخص فيما يلي:

إن الجملة المختصرة ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]، لا علاقة لها البتة بالمعنى الذي حملت عليه تعسفًا من تفضيل الذكر على الأنثى، فهي لا تخرج في السياق الذي وردت فيه عن الدلالة على أحد المعنيين:

١ ـ **الاختصاص**: فليس يصلح أحد الجنسين لكل ما يصلح له الآخر. فقد يكون أحدهما مؤهَّلًا لوظائف لم يؤهَّل لها الآخر مما يندرج ضمن قاعدة تقسيم العمل في مرحلة من مراحل تطور المجتمع.

٢ ـ **التسرية**: عن امرأة عمران وإذهاب ما داخَلها من غمٍّ بولادة أنثى وقد نذرت وليدها لمهمة دينية كانت العادة تقضي أن يكون ذكرًا، فجاء التصحيح الإلهي لتلك المعتقدات الاجتماعية البالية من خلال توجيه الخطاب الإلهي إلى تلك الأم الأسيفة، وما كان لكِ أن تأسي وتحزني، فقد أنعم الله عليك بخير مما كنت تأملين وتتمنين، معيدًا الاعتبار لا لهذه المولودة فحسب، بل للأنثى كل أنثى من خلال ذلك.

إن الثورة التي فجرها الإسلام والجهاد المرير الذي خاضه من أجل إعادة الاعتبار الإنساني في العدل والحرية والمساواة للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ممن سحقتهم مجتمعات الإقطاع والاستبداد، كان لها الأثر الفعَّال والعميق في تاريخ حركة التحرُّر على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومن ذلك حركة التحرر النسوية، فقد ذهبت الثورة المضادة بكثير من كسب تلك الثورة وآثارها في الواقع وصحب ذلك ودعمه جهود تنظيرية لتكريس الحيف الاجتماعي، والاستبداد السياسي، والفوارق على أساس الجنس واللون والطبقة، كل ذلك باسم الإسلام، باسم القرآن والسنُّة وإجماع العلماء.

وفي هذا الإطار ثار الجدل حول كثير من القضايا التي همَّشت رسالة الإسلام وثورته الفكرية والاجتماعية، مثل قضية نبوَّة المرأة رغم أن اعتقاد الجميع في استحالة ظهور نبوَّة جديدة رجالية أو نسوية مما يؤكِّد الوظيفة الاجتماعية لهذا الجدل في تهميش دور المرأة من وراء التأكيد على عدم تأهيلها الطبعي لذلك التكريم والشرف.

وهو تأكيد لا يستند إلى نص قاطع من كتاب أو سنة مما احتاج معه المدافعون عنه إلى ادعاء انعقاد الإجماع على ذلك، وهو ادعاء قامت الحجج قديماً وحديثًا على نفيه، بل إن أكثر العلماء على خلافه كما أكَّد الإمام القرطبي في تفسيره، مما يجعلنا ـ ولئن سلمنا نظريًّا بحجية الإجماع مصدرًا من مصادر تجديد الشريعة ـ نتوقف كثيرًا لنُثبت انعقاده حقيقة في مسألة من المسائل.

وتأكيد الإمكان التاريخي لحصول التنبؤ النسائي رغم اعتقاد نفي ذلك الإمكان بعد ظهور النبي الخاتم ﷺ فضلًا عن كونه يُمثِّل في ذاته نفيًا لتحريف الحقيقة الإسلامية يحمل دلالات كثيرة في مجال ثورة الإسلام وأبعادها الإنسانية في تحرير المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لأن أول اضطهاد كما يقول روجيه غارودي عرفه التاريخ هو اضطهاد النساء، مما يجعل نسف الأسس التي يقوم عليها الاضطهاد خطوة ضرورية لنسف كل اضطهاد آخر.

ومن دلالات ذلك تأكيد اتجاه المرأة التي تعتقد أنه ليس في بنيتها الطبيعية ما يحول بينها وبين بلوغ درجات الكمال الإنساني والتكريم الإلهي (النبوّة)، اتجاهها نحو اكتشاف نفسها لا بوصفها مجرد جسد هو كل رصيدها في معركة الحياة مما يقتضيها العكوف على التفنُّن في إخراجه وتشكيله بحسب متطلبات السوق الرجالي، بل بوصفها مشروعًا إنسانيًّا يحمل إمكانات هائلة للترقِّي والكمال، وهو مشروع إنما يتحقق عبر النضال الدائب والجهاد الناصب والكدح المرير ضد قوى الانحدار والتهابط والشر والاستبداد على المستوى النفسي والاجتماعي لتحقيق مجتمع العدل والمساواة والتحرر، تمثل أقصى ما يمكن أن تمثِّله الكمالات الإلهية والأسماء الحسنى في هذه الحياة الدنيا..

إن مجال الترقي مفتوح أمام الجميع رجالًا ونساءً عربًا وعجمًا، مفتوح على مصراعيه من دون أي عائق من نسب أو لون، لأنه لئن كانت النبوة قد تم بنيانها فإن إرثها ـ وهو رصيد هائل من القيم والكمالات ـ أمانة في عنق الوارثين من الرجال والنساء.. فليس على الجميع إلا أن يحاولوا، وأن يضعوا أنفسهم في الطريق الصاعد.. زادُهم إقبالٌ جادٌّ على الله ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣]. نعم يا مريم، إنها تُنادى باسمها من الملأ الأعلى كما النبي ﷺ يدعو نساءه وبناته ونساء المسلمين بأسمائهم ـ على ملأ من الناس ـ دونما تحرُّج أو تأثُّم إيحاء بتخلُّق زائف، وكأن المرأة عورة كلها حتى اسمها.

يا مريم كلَّ زمان ومكان، يا أختاه، ونداء الحق والسمو والاجتهاد والثورة في الملأ الأعلى يناديك: اقنتي لربك وأقبلي عليه بإخلاص تستمدين منه القوة لتحطيم أغلال

القرون.. أغلال أيديولوجيات التخلف والتبعية والاستعمار التي تريدك جسمًا منمَّقًا مزخرفًا قابلًا للتشكُّل والاستمتاع والاستغلال كما يشاء الرأسماليون والطغاة.

فيا مريم، يا أُخية، حذار من الوقوع في شباكهم وانضمِّي إلى قافلة الإيمان وكتيبة الثورة والرفض.. رفض الخضوع إلا للحق تبارك وتعالى.. فاقنتي لربك واركعي مع الراكعين.

* * *

الحلقة الرابعة

إنّ كيدهُنّ عظيم

الكيد في اللغة: المكر والاحتيال والاجتهاد في التدبير والمعالجة، وبه سُمِّيت الحرب كيدًا. ولقد ورد في القرآن مرّات كثيرة منسوبًا إلى الإنسان والشيطان، للرجال والنساء، للصالحين والطالحين، بل ورد منسوبًا لله في معرض المقارنة بين كيد المخلوقات وخالقهم. فليس الكيد في حد ذاته ذميمًا، بل منه ما يُحمد ومنه ما يُذم بحسب الوسائل المستخدمة في الاحتيال للتغلب على الصعوبات للوصول إلى الهدف، وبحسب نبل الهدف أو وضاعته.

وفي سورة يوسف نفسها ورد الكيد منسوبًا إلى إخوة يوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]. كما جاء وصفًا للتدبير الإلهي: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦] أي كذلك دبَّرنا له هذا التدبير الدقيق[1]. ولقد ورد هذا التدبير في القرآن ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

وفي سياق العرض القرآني للامتحانات والمحن التي عرَّض الله سبحانه عبده يوسف لها ضمن خطة إعداده لمنصب القيادة السياسية والدينية في مصر، نجد أنه بعد محنة عداء إخوته له وكيدهم له ورميه في الجب فنجاته ووقوعه في محنة الاستعباد، وهو الكريم ابن

(١) المرأة في القرآن للعقاد ١٦ ـ ١٨.

الكريم ابن الكريم[1] حتى بلغ أشده واستوى رجولة وأدبًا، فُتن بافتتان سيدته به فتنة عظيمة وتوسُّلها بمختلف ما تحتال به مثيلاتها للوصول منه إلى إطفاء نيران فتنتها، ولكنه كان يصدُّها كل مرة بلطف وتجاهل دعوتها حتى نفد صبرها وجرح كبرياؤها العنيد، فقررت حمله على ما تريد بأي ثمن: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ لكنه تاب سريعًا إلى ربه واستعلى على نوازعه واستعصم بإيمانه وعفته: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]. وما كان الله ليترك عبدًا له مطيعًا وحيدًا يواجه اندفاعات الجسد ومكايد الشيطان: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

وليس من سبيل للتخلص من ضغط مثل ذلك الظرف العصيب الذي يحيط به إلا النجاة بالانصراف والنأي بعيدًا عن محيط الإغواء، فاندفع للنجاة بنفسه، ولكن السيدة المطعونة في كبريائها الأنثوي ومكانتها الاجتماعية من هذا العبد المتجرِّد من نوازعه وعلى وضعه الاجتماعي الذي يقتضي منه الطاعة والخدمة، تعدو في حالة عصبية في أثره، وتمسك بتلابيبه تجذبه من قفاه لمنعه من الخروج فيتمزق ثوبه: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥].. وفي هذه اللحظة يدخل الزوج سيد مصر ويفتح عينيه مشدوهًا على مشهد السيدة الوقور في حالة عصبية تعدو في أثر فتاها: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾، فتلجأ إلى الحيلة والكيد لتبرير موقفها وتطبيعه وإخراجه مخرجًا لائقًا يجعلها في وضع المرأة الشريفة الوديعة التي تتعرّض لعدوان عبد طالما أحسنت إليه: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]. وعلى الرغم من أنها وضعت نفسها في وضع المعتدى عليه، فإنها لم تحدد نوع العدوان مما يوحي بأن المسألة تتعلق بخلاف بسيط بين السيدة وعبدها، واجهه العبد بالعنف مما يستحق معه السجن أو التأديب.. وفي ذلك تسويغ ذكي للموقف وإبعاد لمسألة الخيانة، ومحاولة أخرى للضغط على يوسف ووضعه في ظروف قاسية أملًا في تليين عناده! لكن يوسف يكشف بوضوح عن حقيقة الموقف للدفاع عن براءته: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف: ٢٦].

---

(١) جزء من حديث الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام (أخرجه البخاري وأحمد).

وإزاء الغموض المحيط بالموقف يتدخل قريب العائلة مستخدمًا بعض القرائن لحسم الموقف: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. ويلفت الحكَم أو الزوج بحسب التأويل انتباه طرفي الحادث إلى عدم تهويله، وكأن شيئًا لم يحدث، مما هو معتاد في الأوساط المترفة حيث تفقد قيم العفة والشرف كل اعتبار حقيقي عدا الاعتبار المظهري تجنبًا للفضائح. فيحسن بيوسف أن ينسى هذا الحدث ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾، وأنت أيتها المتلبسة بفعلتك لقد أخطأت فتوبي ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩].. ويُسدل الستار على هذا المشهد وما فيه.. وذلك معتاد في معالجة مثل هذه الحوادث في أوساط الوجاهة والمال[١].

على أنه يمكن ملاحظة ما يلي:

١ - إن الصلاح والتقى بل النبوّة ذاتها لا تُعْدِم في الإنسان أحاسيسه ونوازعه، وإنما تحله منها محل السيد لا العبد، وشرف الإنسان وفضله ليس في إعدام أحاسيسه، لأنه بذلك يكون مَلَكًا لا يُحمد منه سلوك أو يُذم.. يقول الزمخشري: «فإن قلت كيف جاز على نبي الله أن يكون منه همٌّ بالمعصية وقصدٌ إليها؟ قلت: المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة، ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقَرْمه[٢] ميلًا يشبه الهمَّ به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم، وهو يكسر ما به ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم. ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همًّا لشدَّته لما كان صاحبه ممدوحًا عند الله بالامتناع؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عِظم الابتلاء وشدَّته. ولو كان همه كهمها عن عزيمة لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٣]». فليس الهم والميل إلى الجنس الآخر جريمة في حد ذاتها، فإنما جعل هذا الميل في الإنسان لأداء وظائف أساسية على المستوى النفسي والاجتماعي، فمن لم تراوده هذه الميول فما هو بالشخص السوي.

---

(١) في ظلال القرآن ١٩٨٣.

(٢) القرم: ثورة الشهوة.

(٣) الزمخشري: الكشاف ج٢ ص٣١١ طبعة طهران.

إن ما يُعاب على الإنسان وقوعه تحت سيطرة ميوله فتورده المهالك وتدوس كل قيمة وعرف. فلماذا استعظم كثير من المفسرين على هذا الشاب التقي مشاعره الإنسانية وهمه بامرأة قد استكملت جمالًا ونضجًا، ولكنه يجد من إيمانه وتقاه قوةً تحجزه عن الاستجابة لما لم يأذن الله به؟ أليس ذلك هو الهدف الأسمى للتربية الإسلامية: امتلاك الإنسان زمام نفسه وتحرره من الضرورة؟ أم أن القصد الديني لا يتحقق إلا باجتثاث تلك الميول من جذورها؟ إنها التصوُّرات الإشراقية، وليس شيئًا آخر وراء الحرج الذي دفع كثيرًا من العلماء والمفسرين إلى ركوب المركب الصعب في تأويل بعض النصوص من أجل دفع شبهة النقص الممثَّلة في همّ يوسف وميله لامرأة العزيز مما يتصادم في تصوُّراتهم التي تتطهر جيدًا في الطهور الإسلامي مع عصمة النبوة، وكأن العصمة أو الكمال الإنساني عندهم هو تخلّص من الإنسانية جملة، فأين شرف المكابدة والمدافعة والابتلاء والنصر إذن؟ فضلًا عن أن يوسف لم يكن قد تنبأ آنذاك[1].

يقول الرسول ﷺ: يقول الله تعالى: «إن همَّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة..»[2].

٢ ـ وعلى الرغم من أن الكيد ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ في هذه الحادثة قد صدر من امرأة واحدة معيَّنة، فإن الزوج نسَبَه إلى جنس النساء تخفيفًا من وقع الفعلة وتهوينًا لها، وضربًا من التسويغ، بحسبان أن الاحتيال، وتمويه الحقائق والإغواء والإغراء ليس خُلُقًا خاصًّا بهذه المرأة حتى تُلام عليه، بل هو في كل النساء طبعٌ وجبلةٌ، وما يلام الإنسان على ما في طبيعته من خِلال، لأنه مقهور عليها لا يملك إزاءها ردًّا. ثم إن المصائب إذا عمّت قد تهون من قبيل ما ذكرته الخنساء وهي تعزي نفسها عن أخيها:

ولولا كثرة الباكين حولي   على إخوانهم لقتلتُ نفسي

«إنها اللباقة في مواجهة الحادث الذي يثير الدم في العروق والتلطف في مواجهة السيدة بنسبة الأمر إلى الجنس كله، فيما يشبه الثناء، فإنه لا يسوء المرأة أن يُقال لها: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فهو دلالة في حسها على أنها أنثى كاملة مستوفية لمقدرة الأنثى على الكيد العظيم»[3].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) في ظلال القرآن ١٩٨٣.

فليس إذن ما أورده القرآن حكاية للحدث على لسان الزوج أو الشاهد الحكَم دليلًا يخرج بهذه المقالة ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ من كونها كما هو سياقها تسويغًا وتهوينًا لموقف خاص هو تورط امرأة العزيز إلى حسبان هذه المقالة حكمًا إلهيًّا قاطعًا محدِّدًا للطبيعة الخاصة بالنساء في كل زمان ومكان، وليس في حكاية القرآن لهذه المقالة دليل على إقرار ما يقول ابن المنيّر الإسكندري المالكي:

«وأما هذه الآية، فكيد النساء فيها من قول العزيز، ولكن حكاه الله تعالى عنه، فيحتمل حكايته عنه أن يكون تصحيحًا له، ويحتمل أن لا يكون المراد تصويبه»[1].

ولقد عُدَّت كلمة العزيز ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ حكماً إلهيًّا قاطعًا في طبيعة النساء واختصاصها بالاحتيال والدهاء والخُبث، مع أنه لا دليل على إقرار القرآن لهذه الحكاية، ولم يأت في الكتاب والسنة ما يدعم هذا التأويل ويميز شخصية المرأة كل امرأة بالخُبث والدهاء والادعاء بالباطل والإغواء، فالآيات التي تتحدث عن الطبيعة الإنسانية لا تُميز بين ذكر وأنثى، مثل قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠] ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

فالاستعداد للخير والشر يشكل خاصية للطبيعة الإنسانية وظروف التربية والمجتمع تنمي هذا الاستعداد، وذلك يُبقي للفاعل قدرًا من الحرية في تحمُّل تبعات أعماله. هذا الحُسبان اتخذ سوطًا في يد كثيرين لجلد ظهور النساء بمناسبة وغير مناسبة، بالتلويح إلى فعل النساء وبخاصة امرأة العزيز، بل التصريح أحيانًا بأنهن جميعهن مثلها لا يؤتمنَّ على شيء.

وكما حُمِّلَت النساء في كل زمان تبعات الخطيئة الأولى حُمِّلن مسؤولية امرأة العزيز، فغدت كل امرأة لا شيطانًا فحسب بل هي أشدُّ دهاءً منه، حتى لقد قال جيل من العلماء: أيهما أشد كيدًا المرأة أم الشيطان؟ فحكى بعضهم عن نفسه[2]: «أنا أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان، لأن الله يقول ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وقال

---

(١) من كتاب الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ٢/ ٣١٥. طبعة آنتشارات آختان طهران.

(٢) الزمخشري ج٢، ص٣١٥..

للنساء ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]». فعقب عليه آخر بأن الآية التي ذكر فيها كيد الشيطان من قول الله تعالى غير محكي، وأما كيد النساء في هذه الآية فهو من قول العزيز ولكن حكاه الله تعالى عنه... «وأيضًا فإن الكيد الذي يتعاطاه النساء وغيرهن مُستفاد من الشيطان بوسوسته وتسويله»[1]. ويؤكد مفسرًا: «إنما كيد النسوان بعض كيد الشيطان»[2].

والمقارنة بين كيد المرأة والشيطان بقطع النظر عن الجدل الدائر حول أيهما أكثر دهاءً وطيشًا له دلالته في الكشف عن تصور محدد لطبيعة مزعومة للمرأة متميِّزة تمامًا عن طبائع الرجال، طبيعة لئن لم تكن متمحِّضة للشر والفساد والخيانة والانحطاط والمكر فذلك هو الشأن الغالب عليها. بل لقد نُسبت من غير تحقيق كاف إلى بعض الأصحاب الكرام كلمات في هذا المعنى: «المرأة شرٌّ كلها، وشرُّ ما فيها أنه لا بد منها»[3]. وهو تصور مناف ومصادم للثورة الهائلة التي أحدثها الإسلام في تحرير النساء والإنسانية كافة من عقلية الاستبداد والطغيان والسيطرة والاستعمار بمسوِّغات جنسية أو اقتصادية أو غيرها، إلا أن الثورة المضادة أبت إلا أن تتدثر بالإسلام وتلبس ثوبه وتطعنه من خلف من خلال تفشِّيها في تراثنا في التفسير والفقه والأدب الفصيح والشعبي وفي عاداتنا وتقاليدنا، ولا تزال تفعل مفعولها في إخماد الثورة الإسلامية من خلال تأكيد وإشاعة ثقافة إسلامية منحرفة تُحقِّر المرأة وتلصق بها كل ما هو وضيع ممتهن.

٣ ـ وعلى فرض التسليم بأن كيد النساء، أي تدبيرهن واحتيالهن وبراعتهن في التوصُّل إلى أهدافهن، هو أعظم مما لدى الرجال، فليس ذلك في حد ذاته خسَّة أو ثلمة في شخصية المرأة، بل إن دلالته على الضِّد من ذلك.. ذلك أن المرأة أوتيت فاعلية كبيرة وحيويَّة عظيمة وذكاءً قادرًا وصبرًا مرابطًا وثباتًا وإصرارًا كبيرين في التوصُّل إلى الهدف الذي تحدده لنفسها لا يصرفها عنه شيء. ويبقى منهاج استخدام هذه الطاقة الهائلة لدى كل امرأة تابعًا لنمط تربيتها ولمجموعة الرؤى والتصوُّرات التي تعمر فؤادها فيكون لها الدور الفعال والريادي في تنوير المجتمع ودفعه في طريق

---

(١) حاشية الكشاف ٢/ ٣١٥.

(٢) تفسير المنار ٢٨٨.

(٣) ينسب هذا الأثر إلى الإمام علي رضي الله عنه.

التطور والبذل والفداء توصُّلا إلى المثل الأعلى للمجتمع. وتكون مدمِّرة ماحقة إذا لم يتجاوز المثل الأعلى للمجتمع مستوى النشاط الغريزي فتندفع المرأة وراء كل تافه خسيس شأن المجتمع كله.

وقد ألمح بعض المفسرين بفطنة كبيرة إلى هذ القانون لدى حديثه عن كيد النساء: ولئن جعل الكيد خاصية كل النساء، فقد خص جزءًا معينًا منهن وهُنَّ ربات القصور. يقول: «ولربات القصور منهن القدح المعلّى من ذلك، لأنهن أكثر تفرغًا له من غيرهن»[1]. فلئن كان الجنس من أعمق الدوافع في شخصية الإنسان ذكرًا أو أنثى فإنه في حالة خلو النفس من مثل أعلى من اعتقاد مهيمن على الشخصية معبئ لقواها للنضال من أجل تحقيقه يغدو وحشًا ضاريًا، وأمرًا مطاعًا، وقوة دفع جبارة للشخصية في طريق الانهيار والتمزُّق والتحلل والتهالك على الرخيص من اللذات والتافه الزائل من المُتع والزينة.

إنه من الطبيعي أن تقع امرأة العزيز ومثيلاتها من ربات القصور ممن لا يَفْقَهن من الحياة إلا الاستمتاع والتهيُّؤ له والمنافسة عليه وتوفير أجوائه ووسائله وكأن بهن ظمأ لا يرتوي إلى اللذة، يتهالكن عليه، ويتصارعن ويتآمرن دائسات في طريقهن كل عقبة من خُلق ودين وعُرف، يملأن بذلك فراغ وجودهنَّ.. ولكن أنّى لكادحة في الريف أو في المصنع أو في المدرسة أو في أي مؤسسة اجتماعية أو في قعر بيتها تمضي سحابة يومها وشطرًا من ليلها في البحث عن متبلّغ لها ولأسرتها فتذوي ليورق من حولها جيل جديد، وتشقى ليسعدوا، وتجاهد في دفع الحياة من حولها صوب الأعلى، ولا تغفل عن تثقيف فكرها والوعي بالأوضاع الاجتماعية والسياسية من حولها فلا تتردد في الاستجابة لداعي الدين والوطن لتناضل على جميع المستويات، فهل يتصور أن كيد هذه الكادحة مشابه لكيد تلك المترفة اللاهية؟!!

* * *

(١) المنار ١٢/ ٢٨٨.



الحلقة الخامسة

حُبُّ النساء

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

وردت هاتان الآيتان في سياق تربية الجماعة المسلمة وإعدادها لمواصلة أدائها لدورها في تحرير البشرية، وذلك يقتضي كفاحًا لا يهدأ لتحقيق التحرُّر الذاتي والاستعلاء على الضرورة والحذر، وهي تعيش مع الناس، وتعمل على تحريرهم، أن يشغلها ما يشغلهم من الاهتمامات والمطامع العابرة واللذات القصيرة عن دورها الرسالي الرفيع، وبما يخدم ذلك التصور ويحققه في واقع الحياة منهاجًا لها ويمد الرساليين بمزيد من طاقات التحرر والتحرير ويهيئهم لمستوى أرفع من اللذات الروحية والمادية أعمق وأدوم.

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [آل عمران: ١٥]. إن أهم العوامل المحددة لمصير مجموعة تجاه قضية الحضارة سواء من حيث اكتسابها أو المحافظة عليها أو العجز عن اكتسابها أو المحافظة عليها بعد اكتسابها هو الطريقة التي تتعامل بها مع دوافعها الفطرية ورغباتها الغريزية كالرغبة في الجنس الآخر والبنين والمال وألوان من الثراء والترف.

ولقد أمدنا تاريخ البشرية بسجل حافل من التجارب المتنوعة في التعامل مع تلك الدوافع.. فعلى حين ظلت شعوب ـ بحسب تعبير مالك بن نبي ـ تعيش مرحلة ما قبل الحضارة، المرحلة البدائية التي لا تكاد الدوافع تخضع فيها لأي فكرة تتجاوز هدف الإشباع، تمكنت شعوب أخرى بفضل هيمنة بعض الأفكار أو القيم أو المبادئ على كيانها النفسي والجسدي من تعبئة طاقاتها وتوظيفها في تحقيق ما ترسمه من تلك المبادئ من أهداف فتتحول الإرادات المتفرقة إلى إرادة واحدة وتتحرر الطاقات الكامنة فتوجِّه إلى الإبداع والغلبة في كل المجالات.. حتى إذا فقدت تلك المبادئ سيطرتها على الدوافع وتوظيفها اتجهت إلى الإشباع كغاية في الحياة وآذنت شمس الحضارة بالمغيب.. وقد يأخذ الانهيار الحضاري لا شكل تحرر الدوافع من آثار الفكرة وإنما شكل القمع، وذلك في صورة تسلط تصور معين للحياة يقمع الدوافع الحيوية ويضيق عليها المنافذ ويحقرها فيتباطأ النشاط الحيوي ويتراخى وتتثائب الحضارة وتذوي أزهارها وتتساقط أوراقها.

إن التحدي الكبير هو كيف نُفجِّر الطاقات الحيوية ونوظِّفها في ترقية الحياة وتطويرها صعودًا في طريق التكامل المستمر والسعادة العظمى من دون قمع يورث الخنوع والانكماش والاستكانة والعجز أو تفلّت يورث التمزُّق والدمار والتحلُّل.

ذلك هو المنظور الفكري التربوي الحضاري الذي تنزَّلت وتتنزَّل فيه هذه الآية في بيئة تتوزَّعها في تصريف الدوافع تصوُّرات تتراوح بين: تراث مسيحي يُحَقِّرها ويحط من شأنها، ويدفع الأخيار إلى التطهير من أدرانها حتى إذا غُلِب الإنسان على أمره فاستجاب لندائها، فعل ذلك كارهًا ناقمًا على نفسه، فما تورثه تلك اللذة غير غصص الذنب والاحتقار بتجرعها.. وكيف لا تنمو تلك المشاعر في ظل فكرة الخطيئة الأولى واقترانها بحواء التي غدت رمزًا للخطيئة وأحبولة للشيطان، الشيطان الذي يزين للإنسان الإقبال على الزينة، زينة المرأة والدنيا والرفاه، وكلها أدوات يصدّ بها الشيطان ضحاياه عن عبادة الله!

وبين تصورات يهودية أو وثنية لا يحركها للنشاط غير الحرص والكنود على إشباع دافع من الدوافع: الجنس، المال، التكاثر، تنزَّل الوحي الإسلامي بموقف جديد لا يحقرها ولا يحرمها ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ولا يؤلهها ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] وإنما يحرِّرها من تلك التصورات جميعًا واضعًا إياها ضمن برنامجه في إنعاش الحياة والمحافظة عليها وترقيتها.. فلها إذن دور أساسي في الكيان النفسي والجسدي الفردي والاجتماعي والإنساني. ومن ثَمَّ فهي عميقة في هذا الكيان.

«ولما كانت هذه الرغائب والدوافع ـ مع هذا ـ طبيعية وفطرية ومكلَّفة من قبل البارئ ـ جل وعلا ـ أن تؤدي للبشر دورًا أساسيًّا في حفظ الحياة وامتدادها ورقيها، فإن الإسلام لا يشير بكبتها وقتلها، ولكن إلى ضبطها وتنظيمها وتخفيف حدتها واندفاعها، وإلى أن يكون الإنسان مالكًا لها متصرِّفًا فيها لا أن تكون مالكة له متصرفة فيه، وإلى تقوية روح التسامي في التطلع إلى ما هو أعلى»[1].

وفي المنظور الإسلامي إذن لا تُمثِّل هذه الدوافع بذاتها في بنيان الشخصية نقصًا وشرًّا يبحث عن فاعلها كالشيطان مثلًا ـ كما يذهب إلى ذلك بعضهم ـ وإنما هي مقومات أساسية في التركيب الإنساني جعلت ضمن البرنامج الإلهي لتحقيق وظائف أساسية كالبقاء والنمو والترقي وما يبقى للكفاح الإنساني والكدح والابتلاء والصراع والترقي من معنى من دونها، ومن ثم ووفق هذا المنظور لا حاجة في تزين فاعل التزيين ﴿ زُيِّنَ ﴾ إلى عزوه إلى الشيطان تخلصًا من حرج نسبة ذلك إلى الله، بل ما كان ليثار جدل كبير حول فاعل التزيين بين المفسرين لولا تسرب شوائب تصورات غنوصية تضع كل دافع ورغبة للتمتع في قفص الاتهام، وكأن ترقي الإنسان وتطوره الروحي ينبغي أن يتم حتمًا بقمع تلك الدوافع أو اجتثاثها اجتثاثًا إذا أمكن.. تسربها إلى رحاب الفكر الإسلامي عند احتكاك الحضارة الإسلامية بغيرها من الحضارات.

يقول القرطبي: «واختلف الناس مَن المزيِّن؟ فقالت فرقة: الله زيّن ذلك، وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ذكره البخاري، وفي التنزيل: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ [الكهف: ٧]... وقالت فرقة: المزيِّن هو الشيطان، وهو ظاهر قول الحسن، فإنه قال: مَنْ زيَّنها؟ ما أحدٌ أشد لها ذمًّا من خالقها. فتزيين الله تعالى إنما هو بالإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجبلَّة على الميل إلى هذه الأشياء.

---

(١) الظلال ١/ ٣٧٣، دار الشروق.

وتزيين الشيطان إنما هو بالوَسْوَسة والخديعة وتحسين أَخْذِها من غير وجوهها»[1].

وذهب الزمخشري إلى أن الغاية من تزيين الله هذه الشهوات هو الابتلاء، يقول: «المزيِّن هو الله سبحانه تعالى للابتلاء»[2].

أما الشيخ الطباطبائي فيؤكد على أن «السياق الذي وردت فيه الآية هو سياق ذم الكفار بركونهم إلى هذه المشتهيات من الأولاد والمال واستغنائهم بتزيينها لهم عن الله سبحانه وتعالى، والأليق بمثل هذه الزينة الصارفة عن الله سبحانه الشاغلة عن ذكره ألا ينسب إليه تعالى.. الظاهر أن فاعل ﴿ زُيِّنَ ﴾ غيره تعالى وهو الشيطان أو النفس.. لأن حب الشهوات أمر مذموم وكذا حب كثرة المال».

وينتهي الشيخ إلى أن التزيين تزيينان:

تزيين للتوسل بالدنيا إلى الآخرة وابتغاء مرضاته.

وتزيين لجلب القلوب وإشغافها على الزينة وإلهائها عن ذكر الله، وهو تصرف شيطاني مذموم ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل: ٢٤][3].

ولا يرى الشيخ رشيد رضا مسوِّغًا لهذه الثنائية في عزو التزيين مرة إلى الله وأخرى للشيطان مسايرة لمواقف مسبقة، وذلك أن الكلام في طبيعة البشر وبيان حقيقة الأمر في نفسه لا في جزئياته وأفراد وقائعه، فالمراد أن الله تعالى أنشأ الناس على هذا وفطرهم عليه، ومثل هذا لا يجوز إسناده إلى الشيطان وإنما يستند إليه ما قد يعد هو من أسبابه كالوسوسة التي تزين للإنسان عملًا قبيحًا، ولذلك لم يسند له القرآن إلا تزيين الأعمال: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٨] ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣][4].

وعلى هذا النحو نفسه يسير الشيخ بن عاشور في تأسيس فهمه لآية التزيين، ذلك أنه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٨، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

(٢) الكشاف ١/ ٢٦٢.

(٣) الميزان في تفسير القرآن ٣/ ١٠٢، مؤسسة ت الأعلمي للمطبوعات بيروت.

(٤) المنار ٣/ ٢٣٩.

لمَّا أرجع التزيين إلى انفعال في الجبلة كان فاعله على الحقيقة خالق هذه الجبلات، فالمزيِّن هو الله بخَلْقه لا بدعوته.. وتزيين هذه الشهوات في ذاته قد يوافق الإباحة والطاعة فليس يلازمها تسويل الشيطان إلا إذا جعلها وسائل للحرام، وفي الحديث قالوا: «يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته وله فيها أجر؟ فقال: أرأيتم إن وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر».

وبيان الشهوات بالنساء والبنين وما بعدهما بيان بأصول الشهوات البشرية التي تجمع مشتهيات كثيرة، والتي لا تختلف باختلاف الأمم والعصور والأقطار.. فالميل إلى النساء مركوز في الطبع وضعه الله تعالى لحكمة بقاء النوع بداعي طلب التناسل، إذ المرأة هي موضع التناسل، فحَمْل ميل الرجال إليها في الطبع حتى لا يحتاج بقاء النوع إلى تكلف ربما تعقبه سآمة.

وفي الحديث: «ما تركت بعدي فتنة أشد على الرجال من النساء». ولم يذكر الرجال لأن ميل النساء إلى الرجال أضعف في الطبع وإنما تحصل المحبة منهن للرجال بالإلف والإحسان[1].

وكما ذكرنا فالتصور الإسلامي للحياة ودور الغرائز يتجه إلى توظيفها بدل قمعها، توظيفها طريقًا من طرق عبادة الله والتقرب إليه في تحقيق برنامجه سبحانه في المحافظة على الحياة وترقيتها. وفي ظل هذا التصور وما أعده الإسلام من وسائل لتحقيقه في الواقع لا يبقى داع للتحرج من هذه الغريزة وكأنها آفة طارئة على الشخصية أو خلل فيها.. لقد ألحَّ الإسلام على مطاردة كل التصورات المتخلفة لهذه الدوافع، ولم يكتف بإقرارها واقعًا، بل زين ورغب في إشباعها وهيأ أسباب ذلك وأدرجها ضمن برنامج توحيد الله تصورًا وممارسةً حتى غدا العمل الجنسي في هذا الإطار (الزواج) نشاطًا دينيًّا كسائر الأنشطة الدينية: الصلاة والصيام وغيرها يستحق صاحبه كما رأينا في الحديث المتقدم أجرًا من الله. يقول الرسول ﷺ وهو أكمل إنسان: «حُبِّب إليَّ الطيب والنساء وجُعلت قُرَّة عيني في الصلاة».

---

(١) التحرير والتنوير ٣/ ١٨٠، ١٨١.

وصيغة «حُبِّب» هي نوع من ﴿ زُيِّنَ ﴾ ومعناهما واحد. ثم هذا التجاور الموحي بين الصلاة والميل إلى الجنس الآخر في نفس هذا الإنسان الكامل والأسوة الحسنة ينزع عن هذ الميل كل شوائب الانحرافات الفكرية والدينية التي حامت حول العلاقة بين الجنسين ولوثتها. إن هذا التجاور يوحي بإمالة وفطرية هذا الميل، لأنه مركوز في طبع الإنسان لا حيلة له فيه: (حُبِّب، زُيِّن) كما يوحي بقدسيته ورفعته إذا أُدّي كما تؤدى الصلاة بنية خالصة في مرضاة الله ووفق تعاليمه.. مما لا يبقي مجالًا مع هذا التصور لنشأة الاضطرابات والعُقد النفسية بسبب تحقير الميل النفسي والجسدي إلى الجنس الآخر وقمعه المنشئ للكبت.

لا مجال للكبت: والكبت عملية تتسلط فيها مجموعة من الأفكار والتصورات المعادية للميول والرغبات بطريقة لا شعورية تسبب اضطرابات الشخصية وتفككها[1]، وهو يختلف عن الضبط الذي هو عملية شعورية تقوم على التحكم في الرغبات.

وقد كشف علم النفس التحليلي عن مدى عمق الرغبات والدوافع البيولوجية وبخاصة الدافع الجنسي وتحكّمه في نشاط الشخصية في كل أبعادها محدثًا بذلك ثورة شاملة في الفكر الإنساني ممَّا يُعد كشفًا علميًّا هائلًا أعاد الاعتبار إلى عمق وأهمية الدوافع البيولوجية. وكان حريًّا بالإسلاميين أن يكونوا أسبق من غيرهم إلى التنويه بذلك الكشف، لأنه خطوة إلى معرفة الحقيقة البشرية وإعادة الاعتبار لهذه الدوافع التي قمعت بواسطة التفكير الجنسي طويلًا، كما قمعت بقية الكشوفات العلمية في الميدان الاجتماعي والطبقي، فكانت انتصارات «غاليلي ونيوتن وماركس وفرويد» خطوات في طريق تحرُّر البشرية من الأوهام وقربًا من ذاتها العميقة، وفي كل ذلك وفي كل كشف علمي اقتراب لمركبة البشرية من شاطئ الإسلام (الحقيقة المطلقة).

ولا ينفي ذلك الحاجة إلى تطوير تلك الكشوف وتحريرها مما بقي عالقًا بها من شوائب الزمان والمكان والمبالغات والرؤية الأحادية.

إشكالات

ولقد أثارت الآية المتقدمة لدى بعض المفسرين إشكالات يحسن الوقوف عندها:

---

(١) المفاهيم والألفاظ في الفلسفة الحديثة، يوسف صديق ١٨٥. الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس.

١ ـ لماذا قدّم الميل إلى النساء في الحديث على الميول الأخرى؟

٢ ـ لماذا وقع الاقتصار على حبِّ الرجال للنساء وأغفل العكس؟

٣ ـ ما المقصود بفتنة الرجال للنساء؟

حُبّ النساء

هل صحيح أن الاقتصار على حبِّ الرجال للنساء وإغفال العكس يعود كما ذكر أكثر من مفسر للميل الرجالي وتفوقه، مقارنة مع الميل النسائي؟ «وأن الحب لا يبرِّح بالنساء تبريحه بالرجال؟ فالمرأة أقدر على ضبط حبها وكتمانه وضبط نفسها وحفظ مالها، وإنك لتسمع بأخبار الألوف من الرجال افتقروا واحتقروا وجنوا في حب النساء، ولا تجد في مقابلهم عشرة نسوة قد منين بمثل ذلك في حب الرجال»[1]، أم أن سرّ ذلك يعود إلى أمر آخر غير ما ذكروا؟

ولو عدنا إلى علم النفس الجنسي نسترشد ونستأنس ما وجدنا فيما اطلعنا عليه ما يؤكِّد ما ذهب إليه بعض رجال التفسير. فقد أصبحت مسألة اختلاف نفسية كل من الرجل والمرأة منذ أمد قريب ـ كما أكد عالم النفس «أوزولد شفارتس» ـ مسألة ثابتة[2].

وبالرغم من تماثل تكوين الطبيعة الإنسانية ومرونتها الاجتماعية فإننا مُضطرون إلى الاعتراف بأن مزاج الذكر يختلف اختلافًا أساسيًّا عن مزاج الأنثى[3].

ويتركز هذا الاختلاف بين الجنسين في وظائفهما الجنسية، وميزات المرأة تتمحور حول وظائفها الجنسية «كل ميزة تمتاز بها المرأة لها علاقة بوظيفتها الجنسية أو هي نتيجة لهذه الوظيفة.. والوظيفة الجنسية شيء أساسي بالنسبة إلى المرأة بينما هي عَرَض بالنسبة للرجل، وهذه الوظيفة هي أصل الطابع الأنثوي وكل صفة أخرى ثانوية تتغير بتغير الزي مهما بدت أساسية»[4].

---

(١) تفسير المنار ٣/ ٢٤٠.

(٢) علم النفس الجنسي، أوزولد شفارتس، تعريب شعبان بركات، ١٧٤.

(٣) التحرير والتنوير. م ن ١٧٤ ـ ١٨٣.

(٤) التحرير والتنوير. م ن ١٨٥، ١٨٦.

وهذا مما يجعل الوظيفة الجنسية هي جوهر الأنثى، وأنه على حين تستيقظ الحياة الجنسية عند الرجال بصورة تلقائية.. فإذا ما أَخَذت الخصيتان في العمل وأرسلتا في الجسم هرموناتها أثارت في الفتى هذا التوتر الذي تتولد عنه الحاجة الجنسية، ويحدث هذا التوتر في الأعضاء التناسلية، ويجب تخفيفه بالقيام بالفعل التناسلي، بينما تهجع الحياة الجنسية عند المرأة حتى يأتي فتى الأحلام فيوقظها كما تحلم جميع النساء. إن الفتيات يشعرن في هذه السن بشعور غامض غير محدد يجتاحهن ويبدو في حاجتهن إلى الحنان من دون أن يكون لذلك الحنان أي هدف خاص.

وهكذا نرى الحياة الجنسية منذ البدء وظيفة بيولوجية عند الرجل، بينما هي ظاهرة نفسية عند المرأة. ويتيح لنا هذا الفرق في الأصل فَهْم اختلاف طبيعة الحياة الجنسية ومغزاها بالنسبة إلى الرجل والمرأة، ذلك أن حياة الرجل الجنسية تتعلّق بذاته بينما حياة المرأة الجنسية تتعلق بشريكها.

ينضم الاتصال الجنسي عند الرجل إلى سائر الاتصالات التي يقوم بها مع الأشخاص والأشياء، وهو اتصال مهم، وربما أهم من الاتصالات، ولكنه مع ذلك يظل شبيهًا بها. أما المرأة فإن الحياة الجنسية لها هي جزء من ذاتها وكيانها، ولهذا كانت المرأة منغمسة بعمق في حياتها الجنسية، وهذا أهم ما يميزها عن الرجل، ولقد بلغ من أهمية هذا العنصر في وجودها أن الفعل الخاص ـ الاتصال الجنسي ـ يفقد كثيرًا من قيمته[1].

«وتضطر المرأة إلى إثارة الرجل وتحدِّيه. غير أن كل شيء يتعلق برد الرجل على هذا التحدي وتلك الإثارة. ومعنى ذلك أن مصيرها بيد الرجل ما دامت أن الحياة الجنسية لا ترضيها إلا إذا كانت كاملة»[2]. فالرجل ليس مجرد وسيلة لإشباع حاجتهن الجنسية بل لتحقيق كمال أنوثتهن[3].

«ومن المدهش حقًّا أن نرى عددًا كبيرًا من الرجال يجهلون أن النساء يشتهينهم

---

(١) علم النفس الجنسي، أوزولد شفارتس، تعريب شعبان بركات، ٢٠٨.

(٢) التحرير والتنوير. م ن، ص١٩٧.

(٣) التحرير والتنوير. م ن، ص ٢١٣.

بقدر اشتهائهم هم لهن»[1]، ومع ذلك لا تقوم الحياة الجنسية بنفس الدور عند الرجل والمرأة، لأن المرأة بحاجة إليها لتحقيق ذاتها عن طريق إنجاب الأطفال وتربيتهم، فهي بهذا وسيلة تتخذها المرأة إلى هذا الهدف. أما الرجل فهو بحاجة للحياة الجنسية ليشعر برجولته حقًّا، وليعلم أنه يستطيع أن يقوم بالفعل الجنسي. حياته الجنسية إذن غاية في حد ذاتها، ومهما بدت الحاجة للقيام بالفعل الجنسي تضحية فهي حاجة ملحة جوهرية عند الرجل إلحاح حاجة المرأة الجنسية[2].

أما الفيلسوف الفرنسي المعاصر «غارودي» فيذهب في كتابه اللامع «في سبيل ارتقاء المرأة» إلى تأكيد نفس المعاني المتقدمة في تحليل ميزات كل من الجنسية الأنثوية والذكورية. فعلى الرغم من عمق ميل كل منهما إلى الآخر وشوقه إليه فإنه على حين تكاد الجنسية الذكورية تنحصر في الشبق العارم العابر الموضعي، فإن النساء يتُقْن إلى عدم فصل الشبق عن الحب والمحتوى والإعجاب والاحترام، ويطلبن قربًا أكثر وأناة وودًّا ومساهمة أكثر شمولًا لشخصيتهن.

وهكذا يصبح الشبق النسائي أكثر رفاهة، إذ لا تنحصر النشوة الجنسية في عضو واحد، بل إن الجسد النسائي في أدق أجزائه يهتز شبقًا إذا لم يقتصر الرجل على قرب فظ وأناني وحيواني.. وهكذا فالجنسية الذكورية بتتلمذها في مدرسة المرأة أصبحت أكثر رقَّة وثراء وإنسانية عندما ينطوي العمل الأساسي على ثقافة كاملة للإحساس والانفعال والمداعبة.. لأن النساء ينخرطن بذاتهن لدى ممارسة العمل الجنسي بشكل أكثر شمولًا من الرجل[3].

وينتهي المفكر الإسلامي المعاصر «محمد قطب» في بحوثه التربوية والنفسية والمقارنة بين الجنسين إلى تأكيد نفس المعاني حول طبيعة الجنسين، يقول:

«فطبيعة الرجل الجسمانية تجعله في حاجة إلى إفراغ الشحنة الجنسية كلما تجمَّعت وألحَّت لكي يفرغ إلى وظيفته الأخرى من العمل والإنتاج ومواجهة مشكلات الحياة بأعصاب لا

(١) التحرير والتنوير. م ن، ص ٢٦٢.
(٢) علم النفس الجنسي، أوزولد شفارتس، تعريب شعبان بركات، ٢٧٠.
(٣) في سبيل ارتقاء المرأة، روجيه غارودي، ترجمة جلال مطرحي ٧٢.

يُرهقها القلق والاضطراب. وقد يكون في فترة الشباب على الأقل أكثر طلبًا للجنس في عدد المرات فقط، وإن كانت المرأة أعمق منه استجابة وأشد اشتغالًا به بمجموع نفسها وجسدها وروحها في معناها الشامل لا في صورتها الجسدية فحسب»[1].

وتكاد هذه النصوص تتفق على:

١ ـ إقرار الاختلاف بين طبيعة كل من الجنسين والتكامل بينهما.

٢ ـ الإقرار بعمق الدافع الجنسي وقوَّة ميل كل من الجنسين إلى الآخر.

غير أن هناك اختلافًا نوعيًا أساسيًّا بينهما. فحيث يتجه هذا الميل لدى الرجال إلى الإشباع البيولوجي العابر السريع الذي يتركز في الأعضاء التناسلية بخاصة، فإن هذا الميل يمثِّل الوظيفة الأساسية في شخصية المرأة فهو أكثر عمقًا وشمولًا وامتدادًا ورفاهة ورغبة في الالتحام والاتحاد حد الذوبان مع الطرف الآخر، وليس الجسد إلا مناسبة لذلك الاتحاد والإشباع النفسي[2].

ومن ثم فالمرأة بالنسبة إلى الرجل بُعد من أبعاد شخصيته وامتدادها ومجال من مجالات اتصالاته الأساسية يستعيض عن الفشل فيه بالنجاح في مجالات أخرى. أما بالنسبة إليها فهو محور حياتها وزخم أحلامها وقدرها المحدد لسعادتها أو شقائها وهو مرآتها التي تنظر إلى نفسها من خلاله فتحكم على صورتها وتقوِّم شخصيتها من خلال انعكاسها في صورته وشخصيته.

إنها مهما حاولت تظل مشدودة إلى ذلك الانعكاس، إلى انطباعات الرجل وملاحظاته وآرائه حول شكلها وهندامها وطوقها فتجتهد في نحت شخصيتها وتحويلها من خلال

---

(١) شبهات حول الإسلام ـ محمد قطب ١٣١ ـ دار الشروق ١٣٩٣هـ/ ١٩٨٣م.

(٢) نظرًا لأهمية الدافع الجنسي ونوعية الأسلوب الذي يمارس به فقد ألح الإسلام على ضرورة استبعاد العقلية النفعية المادية في ممارسة العمل الجنسي ووجه إلى الطبيعة الشمولية العميقة له. فكان مجالًا مهمًّا من مجالات التوجيه النبوي: «لا يقعنَّ أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة، وليكن بينهما رسول. قيل: وما الرسول؟ قال: القبلة والكلام». رواه الديلمي أي الكلام الحلو الموقظ، وعلى الرغم من ذلك فإن مسؤولية الارتفاع بذلك العمل إلى مستوى الكمال تعود إلى كل من الزوجين.. ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، «فهلا بكرًا تلاعبك وتلاعبها..» رواه الخمسة. لنا عودة إلى هذا الموضوع إن شاء الله.

ذلك، إنه عالمها ومجالها الحيوي ومصيرها. إن الرجل قلما يعطي نفسه كلها، والقدر الذي يعطيه يحصل من خلاله على ما يرضيه من إطفاء نيران شهوته. أما المرأة فتطمح إلى الكمال. إنها لا تتوحد بذاتها ولا تمتلئ حياتها وتشرق أنوثتها وتتحقق سعادتها إلا أن تعطي وجودها كله، ولا تتردد في ذلك لحظة إذا ظفرت بمن يستحق ذلك أو خُيِّل لها ذلك، وأشد ما يشقيها ألا تجد من يستحق ذلك أن تهبه حياتها.. ولذلك فهي أكثر ثباتًا في حبها ووفاءً وتضحيةً وأقل ميلًا إلى التنقُّل إلا أن تكون قد فشلت في الظفر بمن يستحق أن تهبه وجودها فتتوق إلى البحث عنه. وهذا الجنوح العارم إلى الحب والالتحام بالمحبوب يجعلها أكثر استقرارًا حتى على مستوى الاختيار العقائدي وأبعد عن التنقُّل والتذبذب، وهذا ما يُفسر في صدر الإسلام ندرة المرتدات عن الإسلام بالقياس إلى المرتدين، فهن لا يتاجرن بالحب: حب الزوج إذا أحببنه، وحب الولد، وحب الله، وكله عطاء واتجاه إلى الاتحاد والفناء في المحبوب[1].

ونحن نكاد نجزم على ضوء الدراسات النفسية الحديثة بخطأ التعليل الذي ذهب إليه بعض رجال التفسير في تفسير اقتصار القرآن على حُبِّ الرجال للنساء في الآية المتقدِّمة وإغفال النساء، من أن قوة الميل الذكوري وتفوُّقه على الميل الأنثوي هو العلة.. فقد رأينا سطحية ذلك الميل على قوته وتموضعه وآنيته بالمقارنة مع ما في الميل المقابل من عمق وامتداد وشمول.

أما صاحب المنار: فقد حاول دفع هذا الإشكال عن طريق ضرب ذكي من التأويل صرف فيه حب النساء عن معناه الجنسي الظاهر لجنس الرجال على اعتبار أن الآية لم تقل:«زين حب الشهوات من النساء والبنين» بل: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [آل عمران: ١٤].فقبول المعنى الظاهري:

١ ـ يجعل النساء وكأنهن لسن داخلات في مسمى الناس مما هو مفروض بداهةً وعرفًا وشرعًا.

(١) نقل ابن الأثير في الكامل ٢/ ١٣ من أحداث غزوة أحد أن رسول الله ﷺ انصرف فلقيته حمنة بنت جحش، فنعى لها أخاها عبد الله فاسترجعت له، ثم نعى لها أخاها حمزة فاستغفرت له، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير فولولت وصاحت، فقال النبي ﷺ: «إن زوج المرأة منها بمكان».

٢ ـ قبول دخولهن في مسمى الناس كما هو مقتضى الشرع والعقل لا يستقيم معه اعتبار أن مسمى النساء في الآية مقصود به الجنس الأنثوي مقابل الجنس الذكوري، لأن الآية على هذا التأويل تصبح كالتالي: «زين للرجال والنساء حب الشهوات من النساء والبنين» مما لا يستقيم معه السياق.

٣ ـ إنه على فرض قبول الناس في ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ فئة محدودة منهم هي فئة الذكور، وإن حب هؤلاء للنساء على قوته وشدته خص بالذكر استغناء بأقوى الطرفين على الآخر، فإن سياق بقية الآية لا يستقيم مع هذا الفهم، لأن حب البنين والأموال ﴿وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ ﴾... ليس جبلَّة اختص بها الرجل دون المرأة، بل الثابت الذي تشهد به الفطرة ويقره الواقع أن حب النساء للبنين وتعلقهن بهن وتضحيتهن في ذلك لا يبلغ الرجال شأوه مهما فعلوا.. كل ذلك لا يستقيم معه إجراء لفظة «النساء» في الآية على ظاهرها ويتعين معه صرفه إلى معنى الزوجية كما فعل صاحب المنار، يقول: «فمن تأمل في هذه المعاني والفروق في حب كل من الزوجين للآخر سهُل عليه أن يقول: «إن المراد بحب النساء حب الزوجية الذي يكون بين المرأة والرجل»»[1].

فيكون المقصود بهذه الرغبة الجامحة التي قدمت على سائر الرغبات والمشتهيات هي رغبة من كل من الجنسين الاقتران والالتحام بالطرف الآخر. وهي رغبة مغروسة في كيان كل منهما لا حيلة له فيها، ولو وكلت إلى اختيار بمعزل عن تلك الرغبة لقادها الانصراف عنها وعرَّض النوع للاندثار. ولو تركت هذه الشهوات من دون ضوابط تضمن استمرار أدائها لوظائفها في استمرار النوع الإنساني وحيويته لطغت واستبعدت صاحبها فأذلَّته وقوَّضت استقراره وطمأنينته، ولقعدت به عن كل طموح إلى تجاوز الضرورة ومحاولة الحضارة، ولذلك يعرض الذم لهذه المشتهيات إذا تحولت من كونها وسائل إلى كونها غايات، ومن كونها محكومة بضوابط الخُلُق والدين إلى كونها حاكمة.

عمق هذه الغريزة

ومما يؤكد عمق هذه الغريزة وأهميتها ـ ليس فقط على المستوى البيولوجي في حفظ النوع بل على المستوى النفسي والروحي في استقرار الشخصية وتوازنها وسعادتها، ومن

(١) تفسير المنار ٣/ ٢٤١.

ثم في المستوى الاجتماعي الحضاري عامة ـ ما خصت به هذه الآية من تقديم على سائر المشتهيات وتحذير من استقلالها وانفصالها عما وضع لها من أهداف، وجعل لها من ضوابط، فيحصل للمسلمين ما حصل لغيرهم ممن شغلهم المتاع القريب عن المُثُل العليا والغايات الكبرى، فذكَّرهم بتفاهة هذه اللذات إن هي انفصلت عن كونها وسائل إلى الآخرة: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤]. ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٥].فلم يذكر من لذات الدنيا: الأزواج والبنين وأصناف الأموال غير لذة واحدة: لذة الزوجية. وكأن السعادة لهذا الكائن لا تتصور في غيابها.

إن الذكر والأنثى ليسا في النهاية شخصيتين بل شخصية واحدة انقسمت لتؤدي بانقسامها ثم شوقها العنيد إلى الاتحاد دورًا مقدورًا لها في اكتمال تلك الشخصية وعمارة الحياة. ولئن كانت الزوجية قانونًا من قوانين الوجود بكل مستوياته، فإنه على حين جبل ذلك في كل الأنواع عدا الإنسان على قانون ينظم حركته لقاءً وافتراقًا ترك للإنسان اختيار القانون المنظم لحركة ذلك الشوق وله أن يختار النظام الإلهي أو أي نظام شاء متحملًا ـ طبعًا ـ مسؤولية اختياره في حياته القصيرة وفي الآخرة ثمرتها.

ولقد أبدأ القرآن وأعاد في بيان العلاقات والقوانين التي ينبغي أن تخضع لأوامر الشرع كما لم يفعل مع أي شوق آخر أو غريزة أخرى.

النساء فتنة

ذهب من رأى أن الشهوات الواردة في آية التزيين قد وردت في معرض الذم المنسوب إلى الشيطان.. إلى أن أول تلك الشهوات: حُب النساء. وقد رأى في حديث النبي ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أشد على الرجال من النساء» (أخرجه البخاري).. دلالة على تقديم حب النساء وخطره على كل بقية المشتهيات الأخرى.. وليس الأمر كما ذهب إليه.

ونضيف إلى ما قدمنا:

١ ـ إن الدين لم يذم أو يحتقر ذلك النداء الطبيعي، ولم يعتبر الرقي في الترفع عن الفطرة

الإنسانية فإن هذه النظرة المترفعة المعكوسة تؤدي إلى صراع تتقد فيه نفوس الرجال والنساء على السواء.

وإذا كانت المرأة فتنة كما ورد في بعض النصوص، فمعنى ذلك أنها موضوع اختبار للرجل توجيهًا له وحضًّا على إحسان معاملتها لأنه مسؤول عن ذلك محاسَب عليه. وقد عبّر القرآن عن المال والولد بأنهما فتنة كذلك، ولم يكن معنى هذا احتقار للمال والولد وإنما المعنى مراقبة أحكام الله عز وجل من أجل صالح المجموع حتى يجتاز المرء الامتحان.. فالله هو الذي قال: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال: ٢٨] وهو الذي قال: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف: ٤٦] ولقد ورد: «نعم العون على التقوى المال»، كما ورد: «الدنيا كلها متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة».

٢ ـ ليست المرأة هي وحدها الفتنة فالرجل هو فتنة لها. فكل منهما خُلق فتنة للآخر، أي خُلق مجالًا لاختبار شخصيته وصقلها ودفعها في اتجاه للتطور صاعد أم هابط، ولذلك ورد في الحديث: «ويل للرجال من النساء وويل للنساء من الرجال»، فالرجل والمرأة كلاهما قد يكون فتنة لشريكه، وقد يكون أعظم سعادته في الدنيا والآخرة، وقد يكون أكبر دواعي شقائه فيهما، فيعين الشيطان عليه وينمي في نفسه الإحساسات الهابطة، ويدفعه إلى الترف والتبذير والمجون وسخط الله.. ولأن المرأة قد أوتيت قدرة كبيرة للتأثير في الرجل فإن هبوطها نذير بهبوط المجتمع كله واتجاهه نحو الانهيار مما يقتضي إيلاء تعليم النساء وتربيتهن اهتمامًا عظيمًا.

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق

ورد في الحديث: «إن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء.. إن امرأة الفقير كانت تكلِّف زوجها من الزينة ما تكلف امرأة الغني»..[1] وهكذا عندما يخلو قلب المرأة والرجل من الهموم الكبيرة والمُثل العليا، ورأسها محبة الله وخشيته وعبادته والجهاد لأجل إعلاء كلمته وتتقلص الشخصية وتتمحور حول المتاع القريب، تتحول قوة التجاذب بين الرجل والمرأة إلى كارثة على نفسيهما وعلى المجتمع والحضارة

(١) رواه مسلم.

جملة، وقد يكون كل منهما للآخر بركة ورحمة عندما تندرج العلاقة بينهما ضمن البرنامج الإلهي لحياة البشر وترقيتها، عندها يمكن أن تلمح: «وراء كل عظيم امرأة». «النساء شقائق الرجال»[1]، و«الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة»[2]، و«اظفر بذات الدِّين تربت يداك»..

وعندها يمكن أن نقتصر على التنعم بهذا المشهد الذي التقطته السيرة لعش زوجي سعيد بل نطمح إلى أن نعيشه..

«رحم الله رجلًا قام من الليل فصلى وأيقظ زوجه للصلاة فأبت فنضح وجهها بالماء فقامت فصلت. ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها للصلاة فأبى فنضحت وجهه بالماء فقام فصلى».

عندها لا تكون الحياة الجنسية في إطار الزواج مجرد لذّة عابرة بل تكاملا وسكينة وتشاركا جهاديا لترقية الحياة وتطورها نحو الوحدة والبذل والحرية.. قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].. والله الموفق إلى سواء السبيل.

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أبو الدرداء والترمذي.

القسم الثاني

المـرأة

في واقع المسلمين[1]

(١) تضمن هذا القسم محاضرة أُلقيت في مقر مجلة المجتمع «التونسية» بساحة المنجي بالي بالعاصمة سنة ١٩٧٩ بعنوان: «المرأة في الحركة الإسلامية»، تلاها حوار سجلت مضامينه في آخر الورقة كملاحق، واقتصرت المشاركة على ثلة من الإخوة كان من بينهم صالح كركر، وأحمدية النيفير، والجديدي، والحبيب المكني، وبنعيسى الدمني، وصلاح الجورشي.

وضعية المرأة في عصر الانحطاط

إذا جاز لنا أن نعرِّف الانحطاط بأنه سلبية الإنسان وعجزه تجاه الطبيعة والمجتمع، فإن هذه السلبية لتبدو في أجلى مظاهرها في لون التربية الأسرية التي تشكل المرأة عمودها الفقري.

لقد رسَّخ الانحطاط في نفسية المرأة شعورها بأنها مخلوق ضعيف عليه أن يعتمد في إثبات شخصيته على غيره، وأنها جنس لطيف لم يُخلَق إلا للمتعة، وأنها ليس لها من سلاح في معركة الحياة غير جسدها، فينبغي أن تتعلَّم كيف تتفنَّن في تنميقه وصقله وتطييبه.

لقد غدت المرأة تولد مكروهة محتقرة.. فعليها أن تكون عطوفة لينة، كائنًا مطيعًا للرجل ومجالًا لإثبات سيطرته وقدرته، فتُربَّى على القهر من طرف الأب والأخ ـ حتى لو كان أصغر منها ـ ثم الزوج وهكذا!! ولئن حرَّم الإسلام وَأْدَها فلقد أَعَدَّ الانحطاطُ وأْدًا آخر لشخصيتها وكرامتها، فرسَّخ فيها عدم الثقة بالنفس والاتكال على الغير وتقبُّل الإهانة والاحتقار، وهي صفات تُرضعها مع لبنها لأطفالها فيتوارث المجتمع كله مشاعر الضعف وعدم الثقة بالنفس والاتكال على الآخر، مما يجعل هذه التربية الأسرية مؤسسة رئيسية في مجتمع الاستبداد؛ إذ يُسحَق الفرد في العائلة ويهيَّأ لقبول الاستبداد.. فإذا ذهب إلى «الكُتَّاب» والمدرسة توطدت تلك التربية عن طريق الزجر والإهانة وإنزال العقوبات الجسدية بالطفل.. حتى إذا تخرج ودخل دورة الإنتاج الاقتصادي كان مهيَّأ لقبول استبداد المؤسسة الاقتصادية واستغلالها لتلك التربية العائلية والمدرسية التي تمحق الفرد وتئد فيه روح الجرأة والصراحة والاعتماد على النفس مما يجعل كل محاولة لإحداث تحول اجتماعي

مصيرها الخيبة ما لم تسبق بثورة على مستوى التربية العائلية.. ولأن شخصية الفرد تتكون خطوطها الأساسية في البيت حيث يقضي الطفل حياته الأولى ملتصقًا شديد الالتصاق بأمه، فإن كل تحول حقيقي في صلب المجتمع ينبغي أن يمر بالأسرة ومن ثم بالعنصر الرئيسي فيها: «المرأة».

إنه ما لم تتحرر المرأة من مشاعر الضعف والخنوع والتواكل ورؤية أن رصيدها لا يعدو جسدها الجميل، ليحلَّ محل ذلك نموذج يشعر بالثقة بالنفس والاعتماد عليها وبضرورة الجهاد الدائب لتحرير نفوسنا وأمتنا من كل هيمنة وتسلط حتى تتحطم كل الطواغيت حتى لا ينحني ابن آدم إلا لمولاه عز وجل.. ما لم يحصل ذلك فإن جمود الانحطاط سيتواصل، وحتى ما يبدو هنا وهناك من تحركات وانتفاضات فلا تعدو أن تكون سمنًا مصطنعًا وحماسةً عارضةً والتماعة قصيرة.

مجتمع نسائي منعزل

لقد عمل عصر الانحطاط على تضييق آفاق المرأة بعزلها عن هموم المجتمع ومشاغله الثقافية والسياسية، فغدت مجتمعات النساء مشغولة بتوافه الأمور لا يتجاوز اهتمامهن الحديث عن الثياب والزينة والأولاد وقضايا الزواج والطلاق واغتياب بعضهنَّ بعضًا، وكان ذلك ثمرة حتمية للعزلة التي فرضت على المرأة وأبعدتها عن منتديات العلم ومشاغل المجتمع وحولتها إلى آلة إنجاب ومتاع.

ولم تجد أوربة أساسًا ترسي عليه قيم المجتمع الجديد بعد أن تحطم الأساس الكنسي الذي كان يحمي الإقطاع والاستبداد بدايةً من المؤسسة العائلية وانتهاءً بالمؤسسة الاقتصادية والسياسية، لم تجد أوربة غير مبدإ الحرية الفردية واللذة والرفاه والقوة والسيطرة أُسُسًا للمجتمع الجديد، فانطلقت المرأة تروي ظمأها إلى الحرية التي سلبتها طويلًا، وتناضل من أجل المساواة، وساهمت الحروب المدمرة التي خاضتها أوربة والتي ذهب ضحيتها ملايين الرجال في إبراز الدور الاقتصادي للمرأة، وبالتالي في اعتمادها على ذاتها.. ولم تكن لهذه الثورة التحررية من منظومة قيم تحميها من الوقوع في أسْر الشهوات والمؤسسات الرأسمالية العتيدة التي استغلت ولع المرأة بالزينة واللباس، وتفنَّنت في إبراز مفاتن الجسد والتركيز عليه بوصفه موضوعا للإشهار والفن.. وتمكنت المؤسسات الرأسمالية في النهاية

من فرض استغلال رهيب على المرأة واستنزاف جهودها في استهلاك منتجات الزينة التي لا تعرف الاستقرار وتكريس الفكرة القديمة: المرأة متاع أو المرأة جسد.

الدور الاستعماري

لقد وجدت أوربة المنتشية بثورتها الصناعية والمفعمة بمثل القوة والسيطرة، وجدت العالم الإسلامي الذي ظل منحطًا قرونًا طويلة يزخر بمختلف المظالم وألوان الاستبداد والجهالات، وجدت المجال فسيحًا لفرض سيطرتها عليه وتدمير إمكاناته الاقتصادية والثقافية، فعمدت إلى القضاء على الصناعة اليدوية، وأنشأت مؤسسات صناعية هي امتداد للاقتصاد الرأسمالي مما خرب الريف، وبخاصة بعدما وضع المستعمر يده على الأراضي الزراعية ودفع بالريفيين إلى الهجرة صوب المدن حيث تتوافر بعض إمكانات العمل بشروط مجحفة، فتجمع العمال في أحياء سكنية فقيرة، وانكسر الطوق الخارجي الذي كان يحمي القيم الأخلاقية في الريف، قيم الحياء والشرف، فهنا يختلط الناس بعيدًا عن علاقات النسب والقرابة والعشائرية مما يهدم فاعلية القيم التقليدية (الحياء، الشرف، الخوف من العار..) تلك القيم التي كانت تمارس عملها خارج الفرد وحماية شرف العائلة والعشيرة، أما هنا فلا عشيرة ولا شرف.

لقد غذى المستعمر الثورة على القيم التقليدية بالعمل على نشر قيمه الثقافية عن طريق المدارس ومؤسسات الإعلام، وبخاصة تلك القيم المتعلقة بالعلاقات بين الجنسين مستغلًا الوضعية السيئة بل الوحشية التي كانت المرأة عليها في الريف بخاصة، والتي كانت تتطلب «ثورة».. ولأن الثقافة الدينية التقليدية والتي كانت تحرسها المؤسسات الدينية التقليدية ما كانت مؤهلة لإنجاز هذه الثورة من منطلق الإسلام الحق ضد إسلام الزيف والانحطاط، وذلك أن تلك المؤسسات الدينية هي الأخرى يخيم عليها غالبًا الانحطاط، بل كانت الجهاز المنظم له في كثير من الأحيان، فقد انطلقت الثورة ضد تلك الأوضاع الهمجية من خارج الأجهزة الدينية وموجهًا ضدها بعيدًا عن الدين بل على حسابه، معتمدة الخلط بين الدين في صورته الانحطاطية وصورته الأصلية.. هذا من دون التهوين من انبعاث أصوات الإصلاح من داخل المؤسسات الدينية ولكن تيار التغريب عمل على تهميشها.

التمييع ورد الحركة الإسلامية

لم تظهر الحركة الإسلامية في تونس في مجتمع بدوي تسوده علاقات الفطرة، بل ظهرت في مجتمع أرهقته الحضارة وفتَّ في عضده ونخر كيانه تقليد الغرب والجري وراء مظاهر زائفة من حضارته. لقد خُيِّل لزعماء البلاد وكلهم إعجاب بالغرب أننا لن ننضم إلى ركب المتحضِّرين الغربيِّين حتى نسير سيرتهم في مظاهر حياتهم وأبرزها وضعية المرأة ومساواتها بالرجل.. فانطلق النظام «البورقيبي» مفتونًا بالغرب يهدم بكل عنف أركان المجتمع القديم من دون تمييز بين الحسن والقبيح، معتقدًا أن تحرير المرأة كما تصوره هو طريقه الأمثل إلى اللحاق بركب الحضارة، فجاءت مجلة الأحوال الشخصية لا بوصفها مجموعة قوانين لتصحيح وضعية المرأة بل بوصفها ثورة عارمة على المجتمع القديم.. وانطلقت معها موجة من التهجُّم على الدين ورجاله ودعوة إلى الانطلاق المحموم المدمِّر الذي أوشك أن يطيح بكل خُلق ودين، مما أصاب العلاقات بين الجنسين بتوتُّر شديد وهزّ الكيان الأسري هزًّا عنيفًا حتى إن نسبة قضايا الطلاق في السنة الأولى من تطبيق مجلة الأحوال الشخصية في سنة ١٩٥٧م لم يتجاوز ٧٠٠ قضية، على حين تجاوزت هذه النسبة في السبعينيات عشرة آلاف قضية.

ولم يكن هذا الزلزال الذي أصاب العائلة ناتجًا بالضرورة عن النصوص القانونية التي تضمنتها المجلة بقدر ما كان ناتجًا عما صاحبها من ثورة عارمة على الدين وقيمه اصطبغ بها النظام البورقيبي عند انطلاقته في الخمسينيات، وتواصلت فيما بعد ذلك، فهوجم الدين في شعائره التعبدية (كالصيام)، وصودرت مؤسساته (جامع الزيتونة، الكتاتيب، الأوقاف...) وأُزيحت لغته في التعليم والإدارة، وكُبتَ نزوع البلاد التاريخي صوب المشرق العربي لتربط ربطًا محكمًا سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا بالغرب.

رد الفعل الإسلامي

فلا عجب، وقد وجدت الحركة الإسلامية نفسها في انطلاقتها في السبعينيات تواجه مجتمعًا منحلا يستمد فلسفة انحلاله من البورقيبية، أن تُدين ذلك المجتمع إدانة جذرية مطلقة، لم تسلم نتيجة ما يصاحبها من رد الفعل عادة من حماسة عنيفة وقلة تبصُّر وإمعان

في النصوص للتمييز بين الأصيل والدخيل في الإسلام ـ لم تسلم في بعض جوانبها على الأقل ـ من التأثر بنمط العلاقات التي كانت سائدة في عصور الانحطاط بين الجنسين مما دفعها لا للتصدي فقط لظواهر الاستهتار والميوعة، بل واندفعت أيضًا للاعتراض بشدة على عمل المرأة خارج البيت واختلاطها بالرجال في المدارس ـ من دون تحديد دقيق لمفهوم الاختلاط ـ كما دافعت بشدة عن تعدُّد الزوجات، وكأن التعدد واجب ديني، وليس علاجًا استثنائيًّا، وشجعت المرأة على الاكتفاء بالحد الأدنى من التعليم، وتشدَّدت في رفض كل علاقة بين الرجال والنساء عدا علاقة القرابة والزواج.

ونحن الآن ـ بعد سنوات من التحرك بالإسلام في بلادنا أثمر بفضل الله جيلًا من الشباب من الجنسين ممتلئًا حماسة لدينه، وعزمًا على النضال من أجل قيام مجتمع يعيش وفق تعاليمه أو الموت دون ذلك، على حين خلت المساجد في الخمسينيات والستينيات إلا من عجوز مدلف إلى القبر ـ نجد أنفسنا في موقع يسمح لنا، بل يتوجب علينا (ونحن نعبر مرحلة الدعوة والإرشاد والتربية إلى مرحلة تجذير الإسلام وبلورة اختياراته الاجتماعية)، تقويم مراحل سيرنا الماضية بكل موضوعية بعيدًا عن تقديس الماضي أو تحقيره.

كيف كانت البداية؟

لقد أدركت الحركة الإسلامية منذ انطلاقتها في بداية السبعينيات أهمية المرأة في مسألة الإصلاح، فخصتها ببعض الاهتمام وتوجَّهت إليها بالدعوة العامة من خلال بعض الحلقات النسائية مثل حلقة جامع سيدي يوسف، التي تأسست سنة ١٩٧٢م تحت إشراف بعض الشيوخ، لتعليم النساء أساسيات الدين وما يخصهن من تعاليمه من خلال دروس التفسير والحديث والفقه.. وتوالت بعد ذلك الحلقات النسائية في بعض مساجد العاصمة وضواحيها، ثم انتشرت شيئًا فشيئًا داخل البلاد..

ولقد كانت الأخوات يساهمن بالحضور في الدروس العامة والحلقات والندوات التي تُنظم في المساجد والثانويات والكليات من دون تشجيع كبير من الرجال ومن دون أن تزيد مساهمتهن على الحضور.. ومع ذلك فقد كان إقبال النساء على الدعوة كبيرًا فبرزت ظاهرة الزي الإسلامي (الفستان الطويل وغطاء الرأس) بشكل ملحوظ. غير أنَّ النشاط الإسلامي بين النساء لم يتجاوز مستوى تصحيح التصورات وتقويم السلوك

وإحسان التعبُّد في المظهر، فلم يكن ذلك النشاط يطمح إلى أن يتجاوز بالأخت إعدادها لتكون ربة بيت صالحة، لتؤمن بالله ورسوله، وتقيم الصلاة، وتتأدب بآداب الإسلام في مظهرها مع ترغيبها في لزوم بيتها والانصراف عن العمل خارج البيت، والاكتفاء بحد أدنى من التعليم.

وكانت المشكلات المطروحة من طرف الأخوات نتيجة التكوين الجزئي تتركز حول قضايا جزئية في الإسلام تتعلق بزينة المرأة من تنميص وتطيب ومصافحة الأجنبي وجواز انكشاف الأقدام أم لا؟ وحول ضيق الزي وسعته، والخلوة والاختلاط والحديث مع الأجنبي.. وكانت التوجيهات تلح على تضييق علاقات الرجال بالنساء إلى أبعد الحدود حتى مع زملاء الدراسة ولو كانوا إسلاميين ولو مع تجنُّب الخلوة والتزام الجد في الحديث.

* * *

العمل النسائي في طريق التطور

إن توسُّع العمل الإسلامي والإقبال المتزايد للمرأة على صفوفه وكثرة الضغوط التي تلاقيها من المجتمع، خصوصًا بعد اندلاع الثورة الإيرانية وما صاحبها من أصداء عن دور المرأة الإيرانية فيها جعل الأخوات يطالبنَ باهتمام أكبر بهنَّ من طرف الحركة للقيام بدور أكثر فعالية في عملية التحوُّل الاجتماعي.. بل إن الأخوات لم يقفن موقف المستأذن بطلب الدخول.. وإنما اقتحمن عدَّة مواقع من العمل الإسلامي فطفقن يُنشئن بأنفسهن الحلقات العامة والخاصة، ويعلنَّ عن تذمرهنَّ من الدور المحدود المخصص لهنَّ.

ومع اشتداد الضغط على الحركة الإسلامية من طرف النظام طوال سنة ١٩٧٨م وما أدَّى إليه من تجذُّر في موقف القطيعة بين النظام وتوجُّه الحركة صوب الجماهير متخلِّصة شيئًا فشيئًا من التفكير النخبوي الانعزالي ومن نزعة الخوف والحذر التي صاحبت تربية المرحلة الأولى، نشأت أواخر السبعينيات حركة نقد ذاتي وامتدت إلى نطاق واسع في صلب الجماعة فشملت من ضمن ما شملت تصوُّرنا للمرأة ووضعها في الحركة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، لدرجة أننا بدأنا نتساءل باستحياء: إلى أي مدى تعبِّر حركتنا عن الإسلام في نظرتها للمرأة؟ إلى أي مدى يمكن أن نَعُدَّ أنفسنا قد تحررنا في موقفنا في قضية المرأة من تراث عصر الانحطاط ومن ردود الفعل تجاه التمييع للمرأة والمجتمع؟

وفعلًا فلقد بدأ اقتناعنا يتأكد شيئًا فشيئًا بأن كثيرًا من مواقفنا ومنها موقفنا من المرأة كانت متأثرة نوعًا ما بعدائنا للتمييع البورقيبي من ناحية، وبالصورة التراثية التي تسرَّبت إلى كثير من الكتابات الإسلامية المعاصرة من ناحية أخرى.

تدارك الأخطاء

والحركة اليوم بصدد التقويم الشامل لمسارها خلال العقدين الماضيين حتى تكون أقدر على تأطير حصاد المرحلة السابقة، لتمكين هذه الجموع الغفيرة المقبلة على الدعوة من الرجال والنساء من الظروف المناسبة لتوظيف طاقاتها في عملية التغيير الاجتماعي وبلورة رؤية إسلامية للمجتمع الإسلامي البديل. إن الحركة وهي تفعل ذلك تدرك حق الإدراك أهمية دور المرأة في حركة التغيير والتنوير الاجتماعيين سواء بالمنظور الديموغرافي الذي يكشف عن أن أكثر من نصف المجتمع التونسي من النساء، أو بالمنظور التربوي من حيث إن المجتمع يتربى على يدها.. ذلك أن شخصية الطفل في السنوات الست الأولى تُشكِّل الأم العامل الرئيسي في تكوينها، فكيف تتبنى حركة الجماهير أداة للثورة ثم تترك المرأة في حالة تشبه الإهمال ليس لها في أفضل الحالات إلا دور ثانوي؟ إن الحركة التي لا يتجاوز طموحها في تربية المرأة سوى أن تستر جسدها وتقيم بعض الشعائر الدينية، حَرِيَّة بأن تكون حركة نخبوية ذات أبعاد ثقافية محدودة وليست بحال حركة جماهيرية.

وحتى تقوم المرأة بدورها الريادي بالإطاحة بالطغيان وإقامة مجتمع العدل والحق والحرية، لا مناص من إزالة بعض العقبات التي تعترض طريقها وتشلّ طاقتها وتساهم في المحافظة على الكيان الطاغوتي قائمًا وقتًا أطول.

إن عددًا كبيرًا من المفاهيم المتعلقة بالمرأة تحتاج إلى إعادة نظر في ضوء النصوص الثابتة، وتقدير أن الصورة التي اتخذتها المرأة في بعض العصور الإسلامية ليست إلا صورة من الصور الممكنة التي عبَّر بها المسلمون عن دينهم في ظروف سياسية واجتماعية خاصة.. فإذا تغيَّرت تلك الظروف كان للمسلمين أن يترجموا عن دينهم في صورة اجتماعية أخرى تكون أكثر أمانًا للنصوص الثابتة (من قرآن وسنة) وملبية لمطالب المرحلة.

وإليك أخي بعض هذه المفاهيم:

المرأة شخص كامل

إن المرأة من حيث إنها إنسان مساوية للرجل، وهي مخاطبة مثله بتكاليف الشريعة؛ فهي مسؤولة مسؤولية كاملة، لا يحمل عنها في الدنيا ولا في الآخرة تبعات أعمالها غيرها.. فهي تحدد مصيرها بنفسها، فتُبْرِم باختيارها الشخصي مختلفَ العقود: عقدًا مع الله فتؤمن به

وتطيعه أو ترفض ذلك، ومع الرجل الذي تختاره زوجًا، وتتصرَّف فيما تملك بكل حريتها من دون تدخل من أي جهة كانت. روى الترمذي عن أم عمار الأنصارية أنها أتت النبي ﷺ فقالت: «ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء»، فنزلت هذه الآية: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣ - ٣٥]، فما ذكر الرجال في موطنِ خيرٍ إلا ذكر النساء على حد سواء.

وفي الاتجاه العام للآيات المتعلقة بالمرأة دعوة ملحَّة إلى الحد من سلطة الرجال التعسُّفية على النساء ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ﴾ [البقرة: ٢٣١] ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ ﴾ [النور: ٣٣]، وتحمل هذه النصوص وغيرها رسالة واضحة في موضوع المرأة هو تحريرها من أوضاع المهانة والصَّغار والاحتقار، ودفعها إلى المستوى الإنساني، مستوى الخلافة عند الله شقيقة للرجل مساوية له.

عمل المرأة

إن هذه القضية التي غدت إثر اتصال المسلمين بالحضارة الأوربية مشكلًا لم يطرح في كتب الفقه قديمًا، فلم يتساءل الفقهاء: هل للمرأة أن تساهم في حركة الإنتاج الاقتصادي أم لا؟ رغم أن الإسلام يؤكد على مسؤولية الرجل في الإنفاق على بيته لتفرَغ المرأة لتربية أبنائها، ولكنهم لم يضعوا قيودًا خاصة لها تمنعها من ممارسة النشاط الاقتصادي.. ففي المجتمعات الإسلامية، وقد كانت في معظمها مجتمعات زراعية ريفية، كانت المرأة تُساهم في كل مراحل الإنتاج الزراعي والرعوي.. وفي المدن كانت لها مساهمتها في الإنتاج الاقتصادي، وكانت وضعية الأسرة من الغنى والفقر هي التي تحدد تدخل المرأة في عملية الإنتاج الاقتصادي أو عدم تدخلها..

فلماذا يطرح إسلاميو العصر هذه المشكلة إذن؟

إنهم لا يعترضون على المرأة الريفية أن تعمل في الحقل وتُعين زوجها رغم اختلاطها بالرجال، ولكن في وسط عفيف بعيد عن الإثارة ومُفعم بروح الفطرة والعفوية.. وهم لا يعترضون على عمل المرأة في منزلها في الصناعات اليدوية.. وإنما اعتراضهم على عملها في الإدارة أو المصنع أو المدرسة، أي على اشتراكها في الحياة الاقتصادية، وقد انتقلت من مرحلة الإنتاج الفردي إلى مرحلة الإنتاج الجماعي، واعتراضهم حسب ذلك لا ينطلق من منطلقات النصوص التي لم تحدِّد للمرأة عملًا معينًا، وإنما انطلاقًا من صورة المجتمع الريفي أو التقليدي التي لا تزال مهيمنة على أذهانهم، فلا يتصورون الإسلام إلا مطبقًا في مجتمع ريفي أو تقليدي.. فما وجه اعتراضهم على امرأة مسلمة تتأدب بأدب الإسلام في زِيِّها وتخرج من بيتها لتشتغل بإدارة أو مصنع لتساهم في حركة الإنتاج الاجتماعي وتساهم في إعالة أسرتها؟

قد يعترضون بأن الزوج هو المسؤول عن نفقات البيت.. هذا في صورة وجود الزوج القادر على تلبية النفقات الضرورية، أما في حالة انعدامه أو اضطراره للتخلي عن عمله أو في حالة عجز دخله عن تلبية احتياجات البيت الضرورية، تلك الاحتياجات المتصاعدة، فبأي نص شرعي تُمنع المرأة من العمل الشريف؟ وبخاصة أن كثيرًا من الشباب العامل قد يجد نفسه يائسًا من الزواج لارتفاع نفقات المعيشة، أفلا يكون عمل المرأة خصوصًا خلال فترة إعداد الزواج والفترة الأولى من الزواج على الأقل سبيلًا لإقامة البيوت وإنقاذ كثير من الشباب اليائس من الزواج بحكم ضآلة دخله وارتفاع تكاليف المعيشة؟ بل إنه قد غدا مما يُرَغِّب في الزواج من امرأة قدرتها على المساهمة في نفقات البيت.. ولقد كان الأمر كذلك في مجتمعاتنا التقليدية، إذ تعد الفتاة لتلك المساهمة بما كان مناسبًا لظروف الإنتاج في تلك المجتمعات. فهل نحكم على المرأة بالعطالة وحتى بالعنوسة لا لشيء إلا لأن نمط الإنتاج قد تغير؟ هذا مع إلحاحنا على أن مهمات المرأة الرئيسية التي لا يمكن لأحد أن يعوضها فيها هي رعاية الطفولة وإعداد الأجيال الجديدة.

ومن المهم في باب عمل المرأة إبداء الملاحظات التالية:

• نحتاج إلى طرح آخر لقضية العمل، في ضوئه تصبح المرأة القائمة على شؤون بيتها لا تكاد تعرف للراحة طعمًا لا ينظر إليها على أنها عاطلة، إذ إن وظيفة الأمومة

ليست وظيفة هامشية، بل هي حاجة ثقافية واقتصادية لا تنافسها في قيمتها مهمة أخرى في المجتمع، وهل هناك أثمن من إعداد البشر؟

لقد بدأت بعض الدول في الغرب تقدِّر أن عمل المرأة بالبيت شغل له حسابه في الدخل القومي العام.. فالأمومة ورعاية البيت وظيفتان اجتماعيتان من حق المرأة الأم ربة البيت على المجتمع أن تتقاضى أجرًا مناسبًا على جهودها.. ولماذا يُعطى الطالب أو التلميذ منحة مالية تتيح له التفرغ لدراسته، ولا تُعطى المرأة الأم منحة تتيح لها التفرغ لمهمتها؟ أليس المُسوِّغ واحدًا، وهو ما يهيئ كل منهما من خدمات مستقبلية للمجتمع؟

- تعترض المرأة العاملة في مجتمعنا مشكلات كثيرة منها العمل المزدوج الذي تقوم به خارج البيت وداخله، فمن واجب الرجل أن يعينها في ذلك، ولقد كان رسول الله ﷺ رغم كثرة مسؤولياته يعِين أهله في شؤون البيت، وذلك ليعلِّم الرجال أن عمل البيت ليس نقيصة.

- إن خروج المرأة المسلمة من بيتها للعمل وملاقاتها كثيرا من المتاعب يُعَدّ تضحية من زوجها لصالح الدعوة الإسلامية.. فإن ضرورة وجود العنصر النسائي الإسلامي في المؤسسات التي يكثر بها النساء كالمؤسسات الصحية والتعليمية والاجتماعية ومراكز التجمع النسائي (طبيبة، ممرضة، معلمة، أستاذة، مرشدة اجتماعية...) بغاية تبليغ الدعوة الإسلامية وإظهار النموذج الإسلامي النسائي يفوق في أهميته حتى الضرورات الاقتصادية بالنسبة إلى الحركة الإسلامية. فعلى الإخوة والأخوات أن يتفهموا هذه الضرورة ويقدموا من أجلها التضحيات المطلوبة.. مما يجعل المصالح من وجود الأخت في هذه المؤسسات تفوق المخاطر والمحاذير. فالمطلوب إذن أن نعمل على بث روح المواجهة لدى الأجيال الجديدة بعيدًا عن الإسراف في روح الخوف والحذر وسد الذرائع، تلك الروح التي سادت في عصور الانحطاط وكبلت المجتمع الإسلامي بخاصة. وإن وجود المرأة في المؤسسة غدا أمرًا واقعًا فلا بد من مواجهته بروح جريئة «روح الاقتحام» بدل روح الهروب والحذر وإيثار السلامة ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٢٣].

- لا بد أن نراعي في وضعية المرأة العاملة ذات الأولاد أوضاعها الخاصة، فلا يضحَّى بالبنين من أجل مكاسب اقتصادية.. فواجب على المجتمع أن يتولى توفير الضمانات الكافية للمرأة لتقوم على هذه الوظيفة حتى لا يهدد الإرهاق بنيتها الأنثوية.. والواجب كذلك أن تراعى الوضعية الأخلاقية العامة فتطهر المؤسسة شيئًا فشيئًا من دواعي الفتنة حتى لا تغدو التنازلات الأخلاقية سببًا للترقيات.

- يراعى في اختيار العاملين الكفاءة المطلوبة بقطع النظر عن الاعتبارات الجنسية، فإذا استوت الكفاءة قُدِّم الرجال، فلا يرضى الإسلام أن تعمل النساء وأفواج الرجال عاطلون، وخصوصًا أن المرأة تقدر على القيام برعاية البيت، على ألا يتخذ هذا مدخلًا للحيف على المرأة وإقصائها من المجال العام، ولا سيما المجال الاجتماعي من تعليم وصحة.. حيث تكون في الغالب الأكفأ.

- تحتاج الحركة الإسلامية في الميدان السياسي والثقافي والاجتماعي (النقابي) إلى إبراز زعامات نسائية يخضن معترك الميدان السياسي والاجتماعي والثقافي متسلِّحات بخلُق الإسلام بوعي عميق بمشكلات العصر ومطالبه، وخصوصًا أن الوجوه النسائية التي أبرزها النظام البورقيبي واللائي يتحدثن كثيرًا عن عمل المرأة وحريتها لا عمل لبعضهن، وحتى للكثير لا داخل البيت ولا خارجه، إلا التشدُّق بالشعارات وتحريض النساء على الرجال بما يورث السخط على جنسهن والرغبة في الترجُّل سبيلًا وحيدًا لتحقيق الذات، فما أحوج مجتمعنا إلى زعامات نسائية يقدمنَ للرأي العام فرصة ممتازة للمقارنة بين نموذج التحرُّر الإسلامي والنماذج التغريبية. مطلوب من الرجال إعانة الذكيَّات الزاكيات حتى يتبوأن مقامات القيادة على كل المستويات.

المرأة والتعليم (الاكتفاء بأبسط مستويات التعليم)

يميل كثير من الآباء إلى الحد من طموح الفتاة إلى نيل الدرجات العلمية العليا، بحجة فساد أجواء التعليم، وأن حاجة الفتاة إلى العلم تقتصر على تعلُّم القراءة والكتابة. فما تفيدها الدرجات العلمية وهي تتهيأ لتكون ربة بيت؟

وليس لهذا التصور البدائي أساس من الدين ولا من المصلحة، وتوجيهات الدين للمسلمين ذكورًا وإناثًا تجتمع في حثِّهما على طلب العلم بكل ضروبه، والتبحُّر فيه ومحاولة

حيازة قصب السبق في ذلك، وتقدير أن ذلك من أرفع مستويات العبادة ما خلصت النية لله.. ولقد بلغت أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن إلى مستوى من فهم الدين ورواية النصوص ما قصر دونه فحول الرجال. ولقد كان اهتمام عائشة رضي الله عنها ـ إلى جانب إتقان الحديث وأحكام الشريعة ـ بأدب العرب وفنون الطب كبيرًا.. فكانت في الذروة من طبقات المجتهدين، فكانت تُعلِّم وتُستشار في كل ذلك، فمن أين أتت الدعوة إلى الحد من طموح الفتاة المسلمة والحيلولة دونها وبلوغ أقصى ما تسمح به طاقاتها الذهنية؟

إن ذلك لعمري مخالفة صريحة لتوجيهات الدين، وحدّ من حرية الإنسان وتعطيل لطاقات المسلمين، ومساهمة ولو بغير شعور على استمرار ثقافة عصر الانحطاط التي رسَّخت في المرأة شعور الضعف والخنوع، وجعلتها تمارس عملها التربوي غير مزودة بأبسط المعارف العلمية.

إن تأكيدنا على أن من مهمات المرأة الأساسية هي الأمومة لا يعني منعها من التعليم والحد من طموحها، بل إن ذلك سبب آخر يدفعنا إلى تمكينها من القيام بمهمتها الكبرى في ظروف أفضل، فضلًا عن أننا نحن الإسلاميين إذ نحد من طموح الفتاة إلى المستويات العلمية ألا نشعر بالتناقض الذي نقع فيه؟ فمن ناحية يودُّ أحدنا لو تمكَّن من عرض زوجته إذا أصيبت بمرض على طبيبة وليس على طبيب، ويتمنى أن درس ابنته على معلمة وأستاذة، ومن ناحية أخرى يحول بين ابنته وبين أن تُواصل تعليمها لتكون معلمة أو طبيبة أو أستاذة أو ممرضة؟

سبب آخر إضافي من شأنه أن يدفعنا إلى حثّ بناتنا إلى النيل من العلم أقصاه بقطع النظر عن قضية التشغيل، فنحن لا نرى ضيرًا أبدًا، ولا تبديدًا للطاقات، أن تقتصر مُجازة (في الآداب أو العلوم) في عملها المهني على تربية أبنائها، بل نتمنى أن تكون كل أم من هذا القبيل، لأنها تكون كما قلنا أقدر على تربية أبنائها وضمان ألا يتجاوزوها إذا وصلوا إلى مرحلة معينة من العلم، فتبقى باستمرار قادرة على فهمهم وتوجيههم بعيدًا عن عقلية الخرافة.. هذا إن لم تحتج إلى العمل، فإذا احتاجت إليه تجد عملًا لائقًا ولا تضطر لأعمال خسيسة، ولا سيما أن المدرسة الحديثة لا يكفي ما تقدمه للطفل حتى من تحقيق المعدلات الوسطى بل التفوق، وغالبًا المتفوقون وراءهم أمهات متعلِّمات متفرِّغات لهم.

فهل درى الآباء خطورة ما يفعلون إذ يمارسون سلطة الأبوة ممارسة تعسفية فيجنون على بناتهم ويخرجونهن من المدرسة مع قدرتهن على مواصلة الدراسة؟ إنها خيانة تتجاوز آثارها الكارثية المعنيات مباشرة إلى المجتمع كله وتنال من الإسلام ذاته.

أما بالنسبة إلى الإسلاميين بالذات، فهناك سبب إضافي آخر يدعوهم إلى حث بناتهم وأخواتهم الداعيات إلى مواصلة التعلم وإلى أقصى ما تسمح به إمكاناتهن، ألا وهو الدعوة الإسلامية ذاتها التي تكون الأخت أقدر على أدائها على أحسن وجه بين كل الأوساط كلما كانت مسلحة بالعمل والمعرفة.. وتستغل معارفها العلمية في تقديم مزايا الإسلام وتقريب مفاهيمه..

أما اتخاذ الجو المدرسي الفاسد سببًا لمنع فتياتنا من مواصلة التعليم فهو ثمرة عقلية عصر الانحطاط، ثمرة العقلية الصوفية التي تُؤْثِر أسلوب الهروب بدل أسلوب المواجهة.. هذا المجتمع نعم هو فاسِد بكل مؤسساته ولكن ألسْنا عازمين على إصلاحه؟ فهل من سبيل إلى ذلك غير التسلُّح بالجرأة والشجاعة واقتحام تلك المواقع والمؤسسات بعقلية موسى لا بعقلية بني إسرائيل؟ ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢] فأجابهم مؤمنان من أصحاب موسى: ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. وفي مجتمع إسلامي يمكن أن تجِد مشكلة تأخير الزواج الناجمة عن طول مراحل التعليم حلّها في اختيار الزواج المبكِّر وهو مع بعض الاحتياطات في تأخير الإنجاب لا يمنع مواصلة التعليم، ولِمَ لا يُشجَّع الطلبة والطالبات على الزواج من طرف الدولة ومن طرف الأولياء مع مواصلة الإنفاق عليهم كما كان الأمر قبل الزواج، والد الفتى ووالد الفتاة، وتعدّ مبيتات خاصة بالطلبة الأزواج كما هو الحال في بلاد كثيرة في الغرب.

ويحسن بعد ذلك التركيز على الملاحظات التالية:

- التعلُّم هو أداة فعالة لتحرير الرجل كما هو للمرأة من رواسب عصر الانحطاط.
- التعلُّم هو عنصر فعال في توسيع آفاق المرأة وإخراجها من العالم الضيق، حيث حشرها الانحطاط فاشتغلت بالتفاهات.

- تقديم نموذج نسائي على مستوى عال من العلم والثقافة هو أفضل السبل للحركة الإسلامية لمجابهة التحدي البورقيبي وإبراز المهانة التي ألحقها بالمرأة وتحويلها إلى سلعة مقابل تعليمها.
- من وجهة نظر إسلامية بحتة لا يمكن قصر تعلُّم المرأة على مجالات دون أخرى.. وإنما كفاءة الفرد وحاجة المجتمع هما وحدهما المتحكمان في عملية التوجيه.
- نوع التعليم يتحدد على ضوء النموذج الاجتماعي الذي نريد، وعلى اعتبار أننا نرمي إلى تحقيق مجتمع واع متحضر في إطار إنسانية الإسلام، فإن تعلم الرجال والنساء ينبغي أن يتحدد في ضوء هذه الغاية، ومن ثم فإن دور الأمومة للمرأة يقضي بتمكينها من تعليم يؤهلها للقيام بهذا الدور، وهذا موضع نقص خطير في التعليم الحالي (فإنه لا يمنع أبدًا تخصصها في مختلف مجالات العلم والثقافة والصناعة).
- إن تعليم الأخت المسلمة ضرورة لتكون أقدر على فهم التطور وبالتالي أقدر على إبلاغ رسالة الإسلام واقتحام المؤسسات.

قضية الاختلاط

لقد اختلفت الكتابة الإسلامية المعاصرة وهي تحاول التصدي لتيارات العصر الجارفة التي لم تستطع هضمها معتصمة بمواقع اجتماعية ريفية اختلقت موضوعات فقهية لم تعرفها كتب الفقه القديمة، وشغلت أذهان الناشئة المسلمة بمناقشتها.. ومن ذلك الموضوع المسمى الاختلاط بين الجنسين والتشديد في تحريمه على كل المستويات من دون تحديد دقيق لهذا المفهوم معيدة إلى الأذهان فترة المجتمعات الإسلامية الانفصالية، والتي سادت في عصر الانحطاط.. وكان أقل حدة مما ينادي به هؤلاء الإسلاميون المعاصرون، والتي سادت في عصر الانحطاط، فماذا يعنون بالاختلاط؟ هل يعنون به وجود الرجل والمرأة في وضع مريب بعيدًا عن الناس (الخلوة)؟ أم يعنون به اجتماع الرجال بالنساء في أجواء من الإغراء أو وجودهم في وضع تماس فيه الأجساد؟ إن كان الأمر كذلك فقد أصابوا في التعبير عن موقف الإسلام يمنع ذلك حرصًا منه على طهارة القلوب والأعراض..

أما إذا كانوا يعنون منع وجود الرجال والنساء تحت سقف واحد لتعلُّم العلم أو مدارسة شؤون المسلمين متأدبين بالآداب الشرعية في الهيئة والحركة، حتى وإن يكن ذلك تحت سقف مسجد أو مدرسة أو ناد ثقافي أو مجلس تذكير وإرشاد أو في ساحة جهاد أو مسيرة احتجاج، فلقد أخطئوا وصادموا الصورة التي نقلتها لنا النصوص الثابتة عن مجتمع الموحدين فيما تلا ذلك من الراشدين، حيث كان المجتمع الإسلامي واحدًا بعيدًا عن فكرة المجتمعات المنفصلة التي تولَّدت في عصور الانحطاط.. ففي المساجد والأسواق وساحات الجهاد كنت تجد مجتمعًا واحدًا من الرجال والنساء تسودهما علاقات عفوية جادة، فكانت النساء يشهدنَ دروس العلم بمسجد النبي ﷺ من دون حواجز، وكانت المرأة تعبر عن رأيها من دون أن يطرح أحد في مسجد النبي قضية هل صوتها عورة أم لا؟ فكنَّ يجادلنَ في مجلس النبي وخلفائه.

وكانت السيدة عائشة تتصدّى للفتوى، وكانت النساء يُستشرن في أمهات القضايا كما حدث في صلح الحديبية وفي أمر خلافة عثمان كما رواه ابن كثير، وكُنَّ يخرجن للعيدين مع منع الرجال من الوقوف في طريقهن إلى المسجد.. فلا عزل بين الرجال والنساء في صلاة أو في مجلس علم أو سوق أو ساحة جهاد أو مجلس تشاور في أمور المسلمين ولا عزل بين الرجال والنساء، فللمرأة أن تستقبل ضيوف الأسرةوتحدِّثهم وتخدم ضيوف زوجها.. وكل ذلك في إطار آداب الإسلام وتعاليمه، وهي وإن لم تفرض عزلة بين الجنسين فقد فرضت عفّة النظر وطهارة القلب وضرورة أن يستشعر كل من الجنسين رقابة الله فلا يسلك سبيلًا للإغراء وإثارة الفتنة.

فما يحل لمؤمن ولا مؤمنة أن يدفع أهل الإيمان إلى مواطن الردى فعين الشيطان عليه[1]، وإنما طبيعة العلاقات بين المؤمنين عمومًا علاقات تعاون على البر والتقوى، وعلى مقاومة الشرور والعمل على الإطاحة بالطواغيت وإقامة معالم الحق والعدل والعفة.

ولنذكر أن الإسلام لا يصل إلى أهدافه في تطهير العلاقات بين الجنسين من التحلُّل والفساد عن طريق تكثيف الحُجب وتحويل البيوت إلى سجون للنساء والحكم عليهن

---

(١) د. حسن الترابي: المرأة بين الدين وتقاليد المجتمع.

جميعًا بما حُكم به على اللاتي يأتين الفاحشة.. بل إن تعويل الإسلام على تحقيق أهدافه وقيمه إنما يقوم أساسًا على التوعية والتربية العقائديين وإشاعة أجواء الطهر والعفة والتعاون على الخير في العلاقات البشرية وتعبئة المجتمع كله في حركة جهادية على المستوى النفسي والاجتماعي، لا تعرف السكون أبدًا ما دام في الأرض شيطان يوسوس ونفس تضعف وطواغيت تتآمر. وصدق رسول الله ﷺ: «الجهاد ماض إلى يوم القيامة»، لأن مناخات التحلُّل واستبداد الشهوات حيث لا هَمَّ للرجال والنساء غير الفتنة وإثارة الشبق إنما هي الثمرة الطبيعية للفراغ النفسي والعقدي.. بينما في مناخات جهاد الإصلاح والبناء لا تطغى غرائز الجنس على غيرها وتجد مجال إشباعها بطريق مشروع، حتى إن النساء كن يجاهدن مع رسول الله ﷺ ويُشمِّرن عن سوقهنَّ وهنَّ يسقين ويداوينَ الجرحى.. لأنه لا أحد في تلك المناخات ينشغل بالتلصص والتطلع، وعلى ذلك قس.

* * *

ملحق ١

اختلف العلماء في تفسير ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فذهب بعضهم إلى أنها من الوقار، وذهب البعض الآخر إلى أنها من القرار.. كما اختلفوا: هل هي خاصة بنساء النبي ﷺ كما هو سياق الآية أم هي عامة للنساء، وحتى على فرض عمومها فهي لا تمنع المرأة من الخروج لقضاء حاجاتها من تعلم وعمل وجهاد ودعوة.

- إن مقولة الاختلاط طُرحت بوصفها ردَّ فعل على التمييع الغربي، فقد تم ذلك في ظل فلسفة رأسمالية مادية تستغل جسد المرأة وتُعاملها على أنها متاع رغم دعاوى التحرر.. وأي تحرر؟

كانت المرأة قديماً متاعًا لرجل واحد فغدت متاعًا للجميع.. والإسلام جاء ليحررها من هذه العقلية جملة ليجعل منها إنسانًا يعيش لقضية ويلتزم برسالة ويملك نفسه من التردّي ويشارك في الاستمتاع أخذًا وعطاءً.

- إن خروج المرأة قد فرضته ضرورات مختلفة. ولقد جاء الإسلام بمبادئ عامة لتنظيم المجتمعات وترك للفكر الإسلامي أن يستنبط الأشكال الملائمة لذلك التنظيم.. والمجتمعات الإسلامية عمومًا تتجه من الوضع الريفي إلى الوضع المدني، ومن حالة انطماس شخصية الفرد إلى حالة السعي لتأكيدها، ومن مجتمعات التمايز على أساس الجنس والعرق إلى مجتمعات المساواة والديمقراطية، وهذه الاتجاهات للتطور غلابة، فواجب الحركة الإسلامية بدل التصدي لها فهمها واستيعابها والعمل على توجيهها بما يناسب مبادئ الإسلام وقيمه العليا.. فالحديث عن منع الاختلاط أمام اتجاه هذه التطورات لا يدل على وعي كاف باتجاهاتها..

• نحن نرث ثقافة خلاصتها غالبًا: «المرأة إنسان فاسد»، يُضاف إلى ذلك مشكل آخر أننا رجالا ونساء نعيش مجتمعًا ماديًّا يشتغل فيه كل من الرجل والمرأة لإغواء الآخر ويتسلط أحدهما على الآخر.. وعلى المستوى العالمي تسود علاقات استغلالية، فهل يكون الحل بالدعوة إلى عزل المرأة عن عالم الرجال؟ أم بتعبئة كل الطاقات للقيام بالثورة التحررية الشاملة على المستوى النفسي والاجتماعي والثقافي والسياسي في إطار قيم الإسلام؟

• إن النظام البورقيبي أراد أن يصنع لنفسه تيجانًا مزيفة، فجعل من منع تعدُّد الزوجات مفخرة من مفاخره مع أنه لم يفعل إلا أن نقل التعدد من مستوى الحلال إلى مستوى الحرام، بتشجيعه على ثقافة الانحلال واستغلال جسم المرأة في الإعلان، وتزيين المحافل، وإباحة الزنى، وتيسيره لوسائل منع الحمل والإجهاض، وحظره للزي الإسلامي.

لقد راهن النظام البورقيبي على المرأة رهانًا سياسيًّا لا رهانًا حضاريًّا، لم يتجاوزها مرحلة الاستغلال، استغلال صوتها في انتخابات واستغلال قوة عملها في مؤسساته الرأسمالية بثمن بخس[1]. والحركة الإسلامية لكي تُظهر زيف هذه التيجان مدعوة إلى أن تتجاوز منطق ردود الأفعال والتصدي للبورقيبية من موقع الانحطاط فذلك خير دعم لها، وإنما بالتصدي لها من موقع إسلامي يعيد للمرأة كرامتها وإنسانيتها. وإذا قلنا من موقع الإسلام وروح العصر.. نعم لتعلم المرأة، نعم لعمل المرأة، فالنتيجة: «نعم للاختلاط بشروطه الإسلامية»[2].

المرأة الداعية

غنيٌّ عن البيان أن المرأة مخاطبة بهذا الدين على قدر المساواة مع الرجل، وهي شقيقة له في الاعتقاد والعمل والجهاد من أجله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

(١) طرف مداخلة للدكتور حميدة النيفر.
(٢) طرف من مداخلة لصالح كركر.

والذي من الضروري تأكيده في هذ السياق أن النساء يملكن طاقات هائلة للدفع.. فإما أن يدفعن المجتمع (الزوج، والأب، والأخ، والأبناء) إلى معالي الأمور وعزائمها، وإنها لحقيقة تلك التي ينطبق عليها المثل المشهور: «وراء كل عظيم امرأة»، وإما أن يدفعنهم إلى المنحدرات والسفاسف كما هو الحال الغالب في عالمنا اليوم لما هيمنت ثقافة الجسد، ثقافة الفتنة والإغواء..

ومن ذا الذي ينسى دور خديجة في تثبيت النبي ﷺ ودعمه ماديًّا ومعنويًّا حتى عَدَّت السيرة عام وفاتها عام الحزن، وكذلك دور عدد كبير من النساء في تحول الرجال إلى صفوف الدعوة مثل حمزة وعمر بن الخطاب وغيرهما، ودور أسماء في تثبيت ابنها عبد الله بن الزبير، وهجرة النساء إلى الحبشة والمدينة وشهودهن أهم المعاهدات السياسية بين الرسول ﷺ والأنصار؟ من نسي دور المرأة في الإعصار الإيراني وتقديمها ما يزيد على ٧٠٠ شهيدة؟ ولقد كان حضور المرأة في المعارك والمظاهرات يكتسب أهمية كبرى لدى الرأي العام.

ومن ذا الذي ينكر دور المرأة السودانية في عملية التحول الاجتماعي بقيادة الداعية سعاد الفاتح، أو دور المرأة المصرية المسلمة بزعامة الداعية زينب الغزالي، وآخر بطولة المرأة المسلمة مظاهرات أبناء المدارس في أفغانستان وتصدي الجيش لها بأمر من الضباط الروس، فأبت شهامة الجندي النظامي الأفغاني أن يطلق النار على مظاهرة نسائية مما اضطر الضباط الروس إلى أن يتولوا ذلك بأنفسهم، غير أنه سرعان ما تغيَّرت وجهة المعركة فثارت ثائرة الجنود الأفغان أمام مشهد فتاة تُصْرَع برصاص ضابط روسي، فانقضّ الجيش الأفغاني على الجيش الروسي وبدأت ثورة[1].

فليس صحيحًا أبدًا ما أُشيع من ضعف المرأة وعدم تحملها لتبعات الدعوة ومحافظتها على أسرارها وثباتها على المحن فإن المتتبعين للسيرة يؤكدون أنه في الوقت الذي ارتدّ فيه عدد من الرجال في عهد النبي ﷺ لم يسجّل اسم امرأة واحدة ارتدّت[2]. فلقد ارتد مثلًا رجلان من المهاجرين إلى الحبشة وثبتت زوجتاهما أم حبيبة وسودة، فأكرمهما النبي ﷺ بعد عودتهما.

* * *

(١) فما دور المرأة المسلمة في تونس في مواجهة ثقافة ومخططات التحلل ومحنة الحرب على الحجاب؟!!
(٢) قال لي ذلك أحد المتخصصين في السيرة د. أبو فارس.

ملحق ٢

لقد تجاوز العمل الإسلامي مرحلة النشأة في ميدان الرجال بعد سنوات طويلة من التجارب بينما هذا العمل حديث في ميدان النساء. فمطلوب من المرأة أن تستوعب هذه التجربة بسرعة، فكيف يمكن نقل هذه التجربة إلى الأخوات من دون عون أخيها الداعية الرجل عبر مشاركتها في المجالات العامة والخاصة للِّقاء بما يتفق وضوابط الإسلام، ومن دون تعسف على النافع من أعراف المجتمع بعيدًا عن روح الحذر والاستهتار؟

- مطلوب من الإخوة أن يفسحوا مجالًا للأخوات للتعبير عن مواهبهن، فيمارسنَ كل النشاط الإسلامي الذي يقوم به الرجال وعدم حصرها في مجالات ضيقة.
- نحتاج إلى تنمية روح الثقة في نفس الأخت حتى لا تبقى عالة على الرجل، ولا تبقى في موقف المنتظر، تنتظر الرجل أن يعطيها حقوقها. يجب أن تشعر الأخت أنها مخاطبة بالإسلام مباشرة من دون وساطة.. وأن الحقوق تُنتزع انتزاعًا.
- الحديث عن برنامج للتكوين النسائي يختلف عن برامج التكوين الرجالي، هو تكريس للانفصال ودعوة إلى إسلام نسائي وإسلام رجالي وقرآن رجالي...، حتى الأبواب من الفقه المتعلقة بفقه النساء لا مناص للرجال من تعلّمها وإلا وقعوا في الحرام.
- إن وضعية الأخت اليوم وضعية حرجة جدًّا، فهي لمظهرها الخاص محط أنظار المجتمع وسخرياته.. فهي مغتربة في المجتمع وهي مغتربة أكثر من ذلك في وسط الجماعة، فما يُسمح لها بحضور الندوات والسهرات التي تُطرح فيها مشكلات العمل

الإسلامي، فقبل مطالبتها بأن يكون لها دور في العمل الإسلامي لا بد من تصحيح وضعيتها وإزالة هذا الاغتراب الذي تعانيه على مستوى الجماعة، فإشراكها في مختلف ألوان النشاط والمؤسسات في حدود الإسلام والترفق في مصادمة الأعراف.. وعلى مستوى المجتمع بفهمه ومعرفته وحسن التعامل معه لتطويره بدل الخنوع أمامه.

- لا بد من دراسة الحركات النسوية في العالم الإسلامي والعالم قاطبة لمعرفة ظروفها ومعرفة مدى ما وصلت إليه من أهداف.
- تحتاج الأخت إلى توسيع آفاقها المعرفية لأنها بقدر ما تتسع تلك الآفاق بقدر ما تترشَّد حركتها.
- إن التحدي المطروح على الحركة الإسلامية في تونس هو: هل تستطيع أن تبرز نماذج إسلامية نسائية كما نجحت في إبراز وجوه رجالية؟ فيجب على العمل الإسلامي أن يتيح الفرصة للأخوات للتعبير عن مواهبهن وإعانتهن وتشجيعهن، وأن يشعرنَ بأهمية ذلك في مجتمع يدَّعى أنه حرر المرأة فلا مناص من تقديم زعامات نسائية يجسِّدن مثالية الإسلام ويفضحن المخازي البورقيبية، وسواء أبرزت هذه الوجوه الإسلامية عبر منظمات نسائية جديدة أو بالعمل على تطوير المنظمات النسائية الموجودة، وكذا سائر مؤسسات المجتمع.
- ويحسن في الأخير أن نُذَكِّر بالحجم الكبير الذي احتلته قضية المرأة والإيصاء بها خيرًا في آخر بيان ألقاه قائد هذه الدعوة ﷺ في حجة الوداع تنبيهًا لنا على أهمية هذا القطاع المهم من الأمة.. وأنه إذا كان الرجال شقائق النساء فلا قيام للدعوة إلا بشِقَّيْها وإلا ظلت تعرج حتى تهوي.

إنه لأمر عجيب أن يجد الداعي نفسه بعد أربعة عشر قرنًا في أشد الحاجة إلى أن يكرر مع النبي ﷺ: «أوصيكم بالنساء خيرًا» ألسنَ شقائق الرجال؟ أوليس المجتمع نصفه نساء وعلى أيديهن يتربى النصف الآخر؟ أليس صحيحًا أن المرأة التي تحرك السرير بيمينها تحرك العالم بيسراها؟ فأنى للتحول الاجتماعي الحضاري أن يعرف طريقه إلى مجتمعاتنا دون استنهاض وتعبئة لكل الطاقات ولا سيما الطاقات المعطلة، طاقة الأخوات؟

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

* * *

حوار حول المرأة

في ثانوية للبنات في تونس[1]

انعقدت في بداية السبعينيات بإحدى ثانويات البنات في تونس ندوة موضوعها: «المرأة والإسلام» دُعي إليها عدد من المهتمين بقضاياه لمساعدة الفتيات وهنَّ في المرحلة الثانية من التعليم الثانوي على التخلُّص من بعض الشبهات العالقة بأذهانهن حول مكانة المرأة ودورها في المجتمع الإسلامي.

تولّى أحد الأساتذة المشتغلين بالإسلام تقديم الموضوع منطلقًا للحوار قائلًا بعد كلمة الترحيب بالحاضرين: «حوارنا الليلة سيدور حول مكانة المرأة في الإسلام.. وباختصار أقول إن الإسلام فرض الحجاب على المرأة، فلا يحق لها أن تُظهر غير الوجه والكفين، كما فرض عليها أن تلازم بيتها لا تبرحه إلا لضرورة أكيدة، وها أنتنَّ أولاء اليوم سافرات تَجُبْنَ الشوارع جيئة وذهابًا لا فرق بينكن وبين زملائكنَّ من الفتيان.. فما موقف الإسلام منكن؟».

وتململت الفتيات واحمرّت وجوه بعضهنَّ تحت وقع نظرات التقريع والتأنيب المسددة نحوهنَّ.. فلازمْن الصمت وتهيَّأن لتلقِّي المزيد من التقريع..

وتسلَّم زمام الحديث إثر ذلك أخصائي آخر من الأخصائيين الكبار في شؤون الدين، فحمد الله وأثنى عليه متخلصًا إلى موضوع الحديث فأكد أن «الإسلام اعترف للمرأة بالكرامة الإنسانية وأنقذها من وضعيتها الجاهلية المنحطة، ومكَّنها من حقوقها، وقرر

(١) ثانوية البنات بميدان القيروان سنة ١٩٧٣.

أن هذه الكرامة لا تحصل عليها ما لم تلتزم الحشمة والحياء وتحتجب حتى لا يظهر من جسدها غير الوجه والكفين، فما عدا ذلك عورة.. نعم إن الإسلام أباح للمرأة أن تتعلم، فالعلم في الإسلام فريضة على كل مسلم، غير أنها ينبغي أن تقتصر من العلوم على ما يفيدها في دينها أو العلوم الدينية».

وما أن انتهى من كلمته حتى كانت الفتيات في موقف محرج جدًّا، فالهجوم عليهنَّ كان عنيفًا، ولكن ما عسى أن يكون رد فعلهن وهنَّ في موقف الضعيف المتلبِّس بجريمة، وحيثيات الحكم تُتلى من قضاة بارعين؟! ما عسى أن يكون غير طأطأة الرأس واللواذ بالصمت العميق؟ وذلك ما أقلق بال المشرفين على الندوة، ما هذا البرود وهذه اللامبالاة؟! فأين هي أسئلة الفتيات التي حضرَ هؤلاء المختصون للإجابة عنها؟ فاضطر بعضهم إلى التدخُّل ومطالبة الفتيات بأن يتقدمن بأسئلتهن مهما كان نوعها إذ لا حياء في الدين، ولكن لا حياة لمن تُنادى!

وأمام هذا الموقف السلبي خطر ببال أحد المختصين خاطر بادر إلى تنفيذه قائلًا: «أنا متأكد أن أسئلة كثيرة تحوم في رؤوسكنَّ ولكن الحياء يمنعكن من إلقائها.. لا بأس، سأكفيكنَّ الأمر وأتولى نيابةً عنكنَّ إلقاءها.. لا بأس، سأكفيكنَّ الأمر وأتولى نيابةً عنكنَّ طرح الأسئلة: هل الإسلام يبيح تعدد الزوجات؟ لماذا ترث المرأة نصف الرجل؟ ما معنى هذه الآية ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤] والآية الأخرى ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؟..

ولولا أن بعض زملائه غمزوه لاستمر في إلقاء الأسئلة. فانبرى القوم وتأهبوا لصدِّ هذا الهجوم الذي افتعله زميلهم فقال أحدهم: «في قضية الميراث إن التمييز راجع إلى أن الرجل هو المكلَّف بالإنفاق على زوجته وأبنائه بينما المرأة في حلٍّ من ذلك فتدَّخر نصيبها وتُنميه، ويتكفَّل زوجها بالنفقة عليها وأبنائها..». وأجاب آخر عن تعدد الزوجات: «إن الإسلام اشترط في ذلك العدل، فإن خيف عدم تحققه فالمنعُ: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣]، وما دام العدل بمقتضى الآية الأخرى مستحيل تحقيقه فالقضية منتهية: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡ﴾ [النساء: ١٢٩]».

بعد هذا الحوار المفتعل بين أهل الاختصاص، تمالكت إحدى الفتيات نفسها واستأذنت في إلقاء هذا السؤال: «سادتي أريد أن أعرف لماذا أنتم معشر الرجال تضعون المرأة دائمًا في موقف الضعف وتُنصِّبون أنفسكم حماة لها مدافعين عنها وكأنها طفل صغير يحتاج إلى الرعاية؟! لماذا تنظرون إلى المرأة دائمًا على أنها من مكمِّلات حياة الرجل وتابع من توابعه؟! إن المرأة قوية وتستطيع أن تُمارس كل ما يمارسه الرجال من أعمال وهي ليست في حاجة إليه»..

واستعد الجميع للرد على هذه الفتاة الثائرة، فقال أحدهم: إن ضعف المرأة واضح بالمقارنة مع الرجل، فهي لا تقوى على ما يقوى عليه من الأعمال الشاقة وألوان الصراع في هذه الحياة، ومن ثمَّ كانت حاجتها إلى الرجل لتستند إلى قوته في خضم هذا الصراع..

واشترك في الحديث مدير المعهد مستدلًّا على هذا الضعف الطبيعي في المرأة بردود أفعالها التي تختلف عن ردود أفعال زميلها الرجل إزاء الموقف الواحد.. فهي مثلًا عندما ترتكب مخالفة تقتضي تقديمها إلى مجلس التأديب تُبادر إلى الاعتراف غالبًا بذنبها طالبة العفو ودموعها تنهمر وكثيرًا ما تتحول إلى شهقات، على حين ترى زميلها الفتى يراوغ ويتوسَّل بشتى الحيل للتخلص من التهمة الملقاة عليه.. وضرب مثلًا آخر لتأكيد هذا المعنى: تصوري نفسك قد عُدْتِ إلى المعهد إثر عطلة فوجدته مغلقًا وقد قدِمْت من الريف ولا تعرفين أحدًا في المدينة، هل سيكون تصرفك في هذا الموقف مماثلًا لموقف زميلك الفتى؟ لا، دون شك.

فردت إحداهن بأن المرأة بدأت تتغلب على ضعفها، فحققت مستويات علمية باهرة تفوق الرجل أحيانًا.. وضربت مثالًا لذلك دكتورة شهيرة في الرياضيات..

فأجابها مدير المعهد: هل يكون رد فعل هذه الدكتورة مماثلًا لرد فعل زميلها في القاعة المجاورة والنور ينطفئ دفعة واحدة في قاعة الدرس؟ لا، دون شك. وتدخل هنا أحد هواة الأدب فدعم فكرة حاجة المرأة إلى الرجل، فضرب مثالًا بأديبات من الشرق والغرب حاولنَ الثورة على فكرة حاجة المرأة إلى الرجل، فتمردنَ ولم يخضعنَ لأي رجل، ولكنهنَّ بعد تمرُّد طويل لم يجدنَ مناصًا من العودة إليه والاستسلام له.

ولزيادة تأكيد هذه الفكرة عاد المشرف على الندوة إلى تسلُّم زمام الحديث متوجهًا إلى الفتيات: إن الإسلام قد كفاكنَّ مؤونة الصراع في هذه الحياة، فلماذا تُجشِّمنَ أنفُسكن مشقة هذا الصراع؟ أنتِ يا بنتي درّة ثمينة وجوهرة مصونة فلا تُعرِّضي نفسك للفحات الشمس وهبَّات النسيم فتؤذيك!

غير أن إحدى الفتيات اتجهت بالحديث وجهة أخرى ملقية هذا السؤال: إنكم تقولون إن الإسلام يفرض الحجاب على المرأة وإن ذلك من لوازم إسلامها، فكيف يمكن لنا التوفيق بين هذا الحجاب وضرورة التعلّم؟

فعاد بعض المختصين إلى الإلحاح على ضرورة الحجاب، وأن الإسلام يبيح للمرأة أن تتعلم ضرورات دينها.. فهبَّ أحد الحاضرين من غير المختصين قائلًا: أنا لستُ مع المنادين بتعرِّي المرأة، ولكني أيضًا لست مع الذين يريدون العودة بسير التاريخ القهقري.. إن التطور أيها السادة حتمية تاريخية، فلماذا نقف في وجه التيار؟! أليس العدل يقتضينا أن نقف موقفًا وسطًا فلا تفريط ولا إفراط؟ «فالشر في التضييق والإطلاق» (تصفيق)..

وارتاح كثيرون لهذ الموقف المعدّل، أوَليس خير الأمور أوسطها؟ ولكن منطق الثورات الكبرى في التاريخ لا يعترف بالحلول الوسطى ولا يكتفي بترميم البناء بل يصمِّم على الإطاحة به لإعادة بنائه على أسس جديدة بمثال جديد لتحقيق غرض جديد.. هذا المنطق لم يحد أبدًا.

وقد انتهى الحديث إلى هذا الحد من التدخل، وتسلَّم المشرف زمام الموقف قائلًا: سادتي، أخواتي اسمحوا لي أن أبدي بعض الملاحظات التي دارت في ذهني وأنا أستمع إلى ما قيل حول موقف الإسلام من المرأة. هذا الموضوع الذي كثيرًا ما تصارعت حوله الآراء والمذاهب وكأن الموضوع في غاية الغموض والتعقيد، وليس الأمر كذلك، وإنما أصبح كذلك بسبب عدم وضعه في المكان المناسب من الهيكل العام الذي انتزع منه وهو الإسلام.

الإسلام عضوية متفاعلة

إن الإسلام لشديد الشبه بالعضوية الحية التي تتفاعل أجزاؤها وتتكامل حتى لا يكون لأي جزء منها أي معنى إذا انتزع من عضويته، بالإضافة إلى ما يطرأ بسبب

ذلك من تشويه واضطراب على العضوية بكاملها.. فقيمة الأنف مثلًا إنما هي في وضعه المعين من الوجه، فإذا انتزع من موضعه ونظرت إليه بمفرده لم تفقه له معنى وأحدثت من ناحية أخرى تشويهًا كبيرًا في الوجه، فقد يذهب بصورته الأصلية، بل قد يذهب بشخصية صاحبه جملة.

ومن هنا يذكر المؤرخون أنه لو تغير أنف كليوباترا لتغير وجه التاريخ. وهكذا بدا موضوع المرأة في الإسلام غامضًا مضطربًا لأننا انتزعناه من الهيكل العام الذي كان جزءًا منه وهو الإسلام.. الإسلام باعتباره نظرة عامة إلي الكون والحياة والإنسان تقتضي أن الله العليم الحكيم ليس خالقًا وحسب، بل هو كذلك خالق ومدبر لشؤون مخلوقاته. هذه النظرة ينبثق عنها تنظيم شامل لحياة الفرد والجماعة، الروحية والمادية، وهذا النظام لا يستقيم أمره إلا بتفاعل أجزائه وقيام كل جزء بوظيفته ضمن الهيكل العام حتى إن أي خلل يطرأ على جزء من الأجزاء فيعطله إنما يُعرِّض النظام كله للانهيار، ويبدو عندئذ كل جزء من أجزائه مُشكلًا غامضًا يتبارى الفرسان لحله متوسلين بمختلف الحيل والتأويلات للتخلُّص مما هو فيه من حرج.. وموضوعنا الليلة هو مثال جيد على هذه الطريقة العقيمة لطرح الإسلام التي جعلت من موضوع المرأة مشْكلًا عويصًا، وإشكاله إنما من نظرتنا الخاطئة إلى الإسلام بحسبانه أجزاء مبعثرة يمكن الفصل بعضها عن بعض ووضعها في هيكل جديد فتبدو آنئذ نافرة ناشزة.

منطلق خاطئ

لقد انطلق الحديث من تقدير أن مجتمعنا لا يحتاج لغير لمسات صغيرة كتطويل الزي، وإزالة الخمرة، حتى يصبح مجتمعًا إسلاميًا، وهذا وهم خاطئ.. فالمجتمع الإسلامي هو الذي يتولى الله فيه سلطة التشريع، تشريع النظم والقوانين والقيم والموازين، ما يتعلق منها بالفرد والمجتمع والدولة، وما يتعلق بالناحية المادية والروحية، إذ الإسلام لا يرتضي التجزيء، بل لا يمكن له أن يعمل ويُثْمر بغير هيمنته على الحياة جملة.. وكل ما عدا ذلك فهو التشويه.. وإنه لخطأ جسيم يرتكبه كثير من المهتمين بالقضايا الإسلامية عندما يحاولون أن ينظروا إلى الإسلام من خلال هذا المجتمع، أو يحاولون محاولة أخرى فاشلة ـ هي فاشلة وخطيرة أيضًا ـ وهي انتزاع بعض أجزاء الإسلام ومحاولة

تركيبها في هذا البناء الاجتماعي المنحرف، فلا يؤدي الدور الذي كانت تؤديه قبل انتزاعها من هيكلها العام ويُساء فهمها ويداخلها التشويه..

وسأضرب بعض الأمثلة، ومن ذلك:

قضية الزي: الإسلام لا يبدأ عمله مع المرأة مثلًا بأمرها بتطويل الزي الذي ينبغي أن تتزيَّن به أو تقصيره أو توسيعه أو تضييقه، ولكن بتغيير نظرتها إلى الحياة والغاية منها، حتى إذا ما أصبحت تنظر إلى الحياة ليس باعتبارها سباقًا مجنونًا إلى اللذائذ والمتع الرخيصة، وإنما على أنها مجال لترقي الإنسان من المستوى البهيمي إلى المستوى الإنساني، فرصة ليناضل فيها الإنسان ضد قوى الشر والبغي والباطل، فرصة ليكتشف فيها الإنسان عن طريق النضال الداخلي والخارجي أسمى ما في نفسه من معاني السمو التي تهيئه ليكون في هذه الدنيا منارًا لتائهين تهديهم سواء السبيل، وفي الآخرة تهيئة لحياة الخلود في النعيم مع صفوة البشر من النبيين والملائكة المقرَّبين، من دون أن ينسى أنه إنسان لجسده كما لنفسه عليه حقوق يؤديها من غير أن يكون عبدًا للشهوات، بل سيدًّا لها يُلبي رغباتها على نحو ترتقي معه الحياة ويحفظ معه المجتمع..

حتى إذا ما استقرت هذه النظرة في نفس المرأة ظهر أثرها واضحًا في سلوكها وعلاقاتها مع الناس وفي مظهرها الخارجي، وكان موقفها من الأوامر التي تتلوها موقف المؤمنين الصادقين ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].

على أني ألاحظ أن الإسلام لم يحدد نوعًا خاصًّا من الأزياء.. بل يكفي أن يكون ساترًا للجسم كله غير مثير (معطف طويل من فوق البنطلون وغطاء الرأس، أو إزار طويل مع غطاء للرأس).. مع الإشارة هنا إلى أن ستر المرأة مفاتنها يؤجِّج الرغبة فيها ولا يُنقصها، بينما التعرِّي يُضعف هذا الشوق إلى أن يقتله، فينتقل إلى الجنسية المثلية (الشذوذ)، فضلًا عن أن الزي الفاضح المُبْرز لمفاتن الجسد يكاد يُعْدِم الكيان الروحي والعقلي للمرأة، فلا يبقي منها غير لوحة جميلة ومادة للاستهلاك تشغل المرأة كل اهتمامها ووقتها في إخراجها وفق رغبات السوق الرأسمالي الذي بلغ حد العبث بجسد المرأة من أجل توظيفه سلعة في السوق، بينما الزي المحتشم يُفسح المجال واسعًا أمام نمو الإنسان الذي في المرأة، أي قوى العقل والروح.

التفريق بين مسألة الزي والتعليم: على أني أريد أن ألاحظ أنه ينبغي أن نفرق بين مسألة تعلم المرأة وبين مسألة الزي، فإن الإلحاح على التزام الفتاة العفة والحشمة في زيها لا يعني حرمانها من حقها الشرعي في تعلُّم ما شاءت من العلوم.. أم أنه كُتب على الفتاة المسلمة وحدها دون نساء العالمين ألا تحصل على شيء من العلم ما لم تتخلَّ عن مقومات شخصيتها القومية؟! وهل فرض ذلك على الفتاة اليابانية أو الصينية التي حصلت على أعلى المستويات العلمية مع المحافظة على مقومات شخصيتها؟ لماذا يفرض على الفتاة المسلمة وحدها أن ترضى بمسخ شخصيتها مقابل حصولها على شيء من العلم؟ لا يفرض على فتياتنا هذا بالذات غير الخضوع لهيمنة الاستعمار الثقافي الغربي الذي أصبحت جميع شؤون حياتنا ألعوبة بين يديه، كقضية الأزياء التي تتشكل بأشكال مختلفة حسب فصول السنة فما يكون من نسائنا إلا إعلان فروض السمع والطاعة. خذوا مثلًا تقليعة الزي الطويل (ماكسي) التي سرت بين عدد كبير من فتياتنا بدافع التقليد المحض، ولم يرين في ذلك بأسًا ولا حرجًا ولم يقلنَ إن ذلك يعرقل سيرنا ويجعلنا نتعثر في الطريق.. وتلك كانت حجتهن عندما كان الأهل أو دعاة الإسلام يطالبهن بالزي المحتشم الطويل.. أما وقد اقتُرح الزي الطويل من طرف مصممي الأزياء في باريس وليس من طرف رب العالمين.. فالسمع والطاعة!

الحقيقة المرة أننا لا نحب ما نحب لأنه خير في ذاته، ولا نكره ما نكره لأنه شر في ذاته، بل لأن الغربيين أخذوا به أو تركوه.. ويكفي أن يتغير رأي الغربيين في كل ما نعتقد صحته أو فساده حتى يتغيَّر رأينا..

تحضرني بهذا الصدد قصة حكاها أحد شيوخ الأزهر في سفَر له مع ابنته بالقطار إلى إحدى مدن مصر: «كان الشيخ مشغولًا بمطالعة أحد الكتب عندما جاءته ابنته متحمسة تطالبه بأن يذكر لها كل ما يعرفه عن عمر بن الخطاب، فتعجب من أمرها لأنها لم تكن تفعل ذلك من قبل، فذكرَتْ أنها تعرفت في القطار على فتاة إنجليزية مُعجبة بشخصية عمر بن الخطاب.. فقال الشيخ: طالما أننا قوم نعيش على التقليد للغرب فيما نُحب ونكره، يبدو أننا لن نعود إلى الإسلام حتى يعتنق الغرب الإسلام، فنُسلم آنئذ ونُطبِّق الإسلام في حياتنا.. لا لأن الإسلام حسن في ذاته، بل لأن الغرب قد أخذ به.. وعندئذ سيبدو الأخذ بالإسلام مظهرًا من مظاهر التقدم والرقي وليس علامة التأخر والرجعية».

إن ما نراه من مظاهر التقليد المتفشِّية في حياتنا مردُّها إلى ضعف مقومات شخصيتنا الحضارية والوطنية، وإلى فقدان الثقة بأنفسنا وبعقيدتنا نتيجة النِّظرة السطحية التي ترسَّخت في أذهاننا عنها.. ولولا ذلك لكان اعتزازنا بهذه الشخصية حاميًا لنا من الوقوع في مستنقع التقليد.

تحضرني أيضًا في هذا الصدد حادثة وقعت لأخت مسلمة في الجزائر سُئلت من طرف بعض الشباب والشابات خلال المؤتمر الرابع للتعرُّف على الفكر الإسلامي بقسنطينة سنة ١٩٧١م عن سبب ارتدائها لهذا الزي (قفطان وغطاء للرأس) مع أنها في مستوى علمي راق (السنة الرابعة من قسم الرياضيات في الجامعة) فأجابت بكل وضوح واعتزاز: ارتديت هذا الزي:

١ ـ لأثبت وجود الإسلام في الجامعة.

٢ ـ ولأنه أكثر مسايرة للحضارة والتقدم.

فتساءل الحاضرون كيف ذلك؟ فأجابت أن الدارس لأحوال الشعوب البدائية يُلاحظ أنها عارية لم تعرف الزي.. وأول مظهر يعبر به شعب من تلك الشعوب عن انتقاله من الحالة البدائية إلى الوضع الحضاري هو اللباس.. أفلا تكون الملابس التي تكشف معظم أجزاء الجسم معبرة عن اتجاه رجعي وانتكاسة تصيب المدنية وتعود بالإنسان القهقرى إلى العهد البدائي، وتكون الملابس الساترة تعبيرًا عن اتجاه تقدُّمي حضاري يسمو بالإنسان عن عالم البهائم!.. فضلًا عن أن العراء، قد أفقد المرأة مكانتها في عين الرجل بابتذالها لنفسها بعد أن كانت حُلمًا يطوف في خياله ويذكي فيه نار الشوق».

ضعف المرأة وقوة الرجل: إذا لم يكن الملل قد اعتراكم فاسمحوا لي بكلمة حول ما قيل حول ضعف المرأة وقوة الرجل. واضح أن المرأة تشعر في الغالب بضعفها إزاء الرجل وحاجتها إليه.. ولكن هل هذا الشعور بالضعف لدى المرأة طبيعي فيها أم نتيجة المنهاج الذي سلكه الرجل في تربيتها؟ ألا يجوز أن يكون هذا الشعور نتيجة الوضعية التي كانت المرأة تعيشها؟ فلو غيرنا هذه الوضعية الاجتماعية وربينا المرأة على تحمل مسؤوليتها وحدها من دون الاتكال على الرجل لتغيّر هذا الشعور بالضعف والتبعية إلى حد كبير إلى شعور بالتفوُّق والاستقلال. أليس ذلك أقرب إلى الصواب؟

تجيب الفتيات بحماسة كبيرة: بلى، بلى، بلى!

أليس الأمر كذلك؟ وإلا لماذا لم يحدث العكس؟ أي لماذا لم تكن المرأة قد أخضعت الرجل وسيطرت عليه فجعلته يشعر بالضعف إزاءها وبتبعيته لها خصوصًا وأنها هي التي تتولى تربيته وليدًا؟ فهل كانت هيمنته عليها مصادفة أم هي راجعة إلى تكوين بيولوجي ونفسي خاص؟ الحق أن العلاقة بين الرجل والمرأة لا ينبغي أن يُنظر إليها على أنها علاقة حرب وصراع على السلطة، وإنما هي علاقة تكامل وتراحم وانسجام: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

كلمة أخيرة حول تعدد الزوجات: هذا هو الموضوع الذي نظر إليه على أنه نقطة ضعف في الإسلام يسهل اتخاذها منطلق هجوم عليه، والحق غير ذلك.. فالإسلام في كل تشريعاته يقف على أساس صلب من العمل على تحقيق مصلحة الجماعة.. حتى ولو كان في ذلك ما يؤذي بعض الأفراد.. ألم تروا إلى ما يفعل المهندس عند إقامته سدًّا من السدود كيف يحتاط لما عساه أن يتهاطل من أمطار تزيد عمّا هو مُقَدَّر للسد أن يتحمله من مياه، يحتاط لذلك بترك بوابة في السد تُفتح كلما زادت كمية المياه على قدرة السد على الاحتمال، لتصريف الكميات الزائدة؟

تصوروا ماذا كان يحيق بالسد لو لم يفتح ذلك المتنفس لتصريف الكمية الزائدة؟ لا شك في أنه سينهار. هذا هو الأمر تمامًا بالنسبة إلى البناء الاجتماعي. إن الزواج هو السد المنيع الذي يحول بين المجتمع والانهيار، وفي أحوال المجتمع العادية تتعادل نسبة الرجال والنساء تقريبًا فيكون لكل رجل امرأة، وهذا هو الوضع الطبيعي.. ولكن هذا الوضع الطبيعي قد يطرأ عليه ما يُحْدث الخلل فيه كالحروب التي تذهب بمن هم في سن الزواج من الشبَّان، فما عساه يفعل المشرِّع الحكيم لحماية البناء الاجتماعي من الانهيار بهذا الفائض من النساء؟ يحكم عليهن بالقتل أم يبعث بهن إلى الكنيسة، ولا رهبانية في الإسلام، أم يترك لهن الخيار بين حياة العزوبة الدائمة وما فيها من لذة الأمومة والحياة الزوجية وبين الاشتراك مع أخرى في زوج واحد؟..

فإن فضلت بعضهن أو جلهن الحل الثاني تماشيًا مع العمل بمبدإ أخف الضررين، فبأي حق يتدخَّل المشرِّع لمنعهن من هذا الاختيار الذي يلبِّي ـ جزئيًّا على الأقل ـ نداءات الفطرة في نفسها من ناحية ويحمي البناء الاجتماعي من ناحية أخرى؟ أليس في هذا رحمة للمرأة وللمجتمع؟ بلى، فيه رحمة للزوجة الثانية، فما ذنب الأولى حتى يهينها ويسلط عليها امرأة أخرى؟ المشرع الإسلامي الحكيم احتاط لذلك بأن جعل للمرأة أن تشترط في عقد الزواج، وهو عقد مدني يملك كل طرف الحق في أن يشترط ما شاء، ألا يتزوج عليها بأخرى.. أليست الرحمة بالإنسان ـ امرأة أو رجلًا ـ تبدو واضحة جلية في كل ما أمر به الإسلام أو نهى عنه؟.. ولكن التقليد الأعمى للغرب ـ على ما يشكو منه الغرب من تفكك وانهيار في النفس والمجتمع ـ والجهل بخصائص هذا الدين هو ما يزعزع ثقتنا بهذا الدين ويدفعنا إلى هذا الموقف الذليل.. موقف التمسح على عتبات الغرب واللهاث وراءه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

لقد أراد الله لهذه الأمة أن تكون رائدة تمسك بيدها مقود العالم لتهدي به إلى سواء السبيل وتقوده إلى الخير والحق والعدل والسلام تُفيء ظلال رحمة ربه فكيف نرضى لها موقف التبعية ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

* * *

التمزُّق الأسري في تونس

ومجلة الأحوال الشخصية[1]

تقديم

هذا الموضوع مقطع تشخيص شامل للمجتمع التونسي قام به المؤلف في المعتقل ولم ينشر بعد، وذلك من خلال الصراع بين الأزواج من الرجال والنساء، الصراع المرير على السلطة،ذلك الصراع الذي يعبِّر عن نفسه في أيسر أشكاله من خلال الخصام الزوجي والنكد الذي يكون السِّمة الغالبة في حياتهم الأسرية في هذا العصر.

أما أشكاله الأكثر حدة فتبدأ بهجر عش الزوجية فالطلاق، مع ما في ذلك من انعكاسات كارثية على المجتمع كله وعلى الأطفال بشكل خاص.. وعلى الرغم ممّا اعتمده القانون من تضييقات مشددة للتقليل من ارتفاع نسبة الطلاق، فإن النسبة في ارتفاع متواصل مهول إذ ارتفعت إلى ما يزيد على عشرة آلاف حالة سنويًّا، بينما لم تتجاوز هذه النسبة في سنة ١٩٥٧م سبعمائة حالة.

وواضح أن ارتفاع عدد السكان لا يفسِّر هذه النسبة.. كما ورد أخيرًا عن مشكلة الطلاق في تونس العاصمة أن «عدد حالات الطلاق لم ينقص بل على العكس، لقد ارتفع، على الرغم من أن المسوِّغ الذي قُدِّم لانتزاع سلطة الطلاق من يد الزوج وإيكالها

---

(١) البحث بعنوان «تحليل حضاري للمجتمع التونسي»، كتب سنة ١٩٨٤ بسجن الناظور، وكان وثيقة رئيسية اعتمد عليها في وضع إستراتيجية للحركة الإسلامية في تونس في مؤتمر الجماعة يناير (كانون الثاني) ١٩٨٧م.

إلى القاضي هو حماية الأسرة بإتاحة الفرصة للقاضي ليراجع فيها الزوجين ويحاول الصلح بينهما، فإن الواقع يُثبت أن نسبة المصالحات الناجحة ضئيلة جدًّا، فمن بين ١٤١٧ قضية طلاق منشورة في المحكمة الابتدائية بتونس في الموسم القضائي (١٩٨٠ ـ ١٩٨١م) لم تتم المصالحة إلا في عشر منها فقط، وقد كان الاعتقاد أن تعدُّد الزوجات وجعْل العصمة بيد الرجل وعدم تغريمه لفائدة الزوجة هي الأسباب الرئيسية للطلاق، وأن القضاء عليها سيقلّل من نسب الطلاق.. لكن الإحصاءات تثبت أن شيئًا من ذلك لم يحدث، بل تفاقمت هذه الظاهرة كما تتفاقم الأموال الربوية أضعافًا مضاعفة، مما يدل على وجود أسباب أخرى هي المسئولة بدرجة كبيرة عن سعادة الأسرة واستقرارها، إذا توافرت، وشقائها وتمزقها إذا تخلَّفت، وأهمها قيام الزواج على رابطة قدسية..

إن شعور الزوجين كليهما بقدسية هذه العلاقة، وبأن لقاءهما هو أساسًا واجب ديني لتحقيق إرادة الله في استمرار الحياة وانتشارها ورقيها وقيامها على المودة والرحمة لا على الصراع والعنف، وأن أوامر الدين هي التي ينبغي أن تحكم هذه العلاقة وتحدِّد منزلة وواجبات وحقوق كل طرف فيها.. يؤكد أن الزواج هو ارتفاع بالجنس من المستوى الجسدي إلى المستوى الروحي.. والزواج رابطة أوجدها الدين وعلى أساسه قامت واستمرت.. والتجربة تُثبت أنه كلما اهتز الأساس الديني في مجتمع اهتزت هذه المؤسسة واتجهت في طريق الزوال بزواله.. فهو أبعد من أن يكون مجرد وظيفة جنسية أو اقتصادية، فضلًا عن أن الدين يدعم مشاعر الثقة والاطمئنان بين الزوجين.

مجلة الأحوال الشخصية

يقول وزير العدل محمد شاكر بمناسبة إحياء ذكرى صدور مجلة «الأحوال الشخصية»: «إن إصدار مجلة الأحوال الشخصية ومختلف النصوص القانونية المتعلقة بالمرأة يستجيب لغرض جوهري هو إعادة الكرامة والاطمئنان للمرأة حتى يمكن لها أن تتفرغ لواجباتها نحو الأسرة والمجتمع. وأنه سعيًا من «المجاهد الأكبر» لإرجاع الطمأنينة للمرأة في حياتها الزوجية، تمَّ منع تعدد الزوجات، ولإرساء حضانة الأبناء عن الطلاق لمصلحة الطفل، وتمكين الأرملة من حقوق الولاية، وتمكين المطلَّقة من تعويض ما يخلِّفه لها الطلاق من ضرر مادي وأدبي، وكذلك تمكين المرأة من حق الوقاية من الحمل في إطار ضمان الاستقرار النفسي داخل الأسرة».

ونفى وزير العدل نفيًا قاطعًا أن يكون هناك تفكير في مراجعة مجلة «الأحوال الشخصية» لأنه لا يمكن الرجوع إلى الوراء فيما تمَّ من إصلاح اجتماعي في هذا المجال.

تُعدّ مجلة الأحوال الشخصية مفخرة النظام البورقيبي وإحدى القوائم الأساسية له، ويوشكون أن يرتفعوا بها إلى حد عَدِّها مقوِّما أساسيًا أو المقوِّم الأساسي للمواطنة في البلاد، أو في الحد الأدنى الشرط الضروري للتمتع بالحقوق الإنسانية كحق المشاركة في العمل السياسي.. ومع تصاعد المد الإسلامي تكونت جبهة علمانية عريضة للدفاع عن هذا المكسب ضد من يحسبونهم خطرًا مهددًا له من الإسلاميين. والتقييم العلمي لوثيقة من هذه الدرجة من القيمة تحتاج بلا ريب إلى عمل أوسع من هذا الإطار الضيق الذي يحيط بنا، فنكتفي بإلماحات:

إن الوضع الاجتماعي الذي برزت في إطاره الزماني والمكاني هذه المجلة لم يكن محكومًا ـ عامة ـ بقيم الإسلام وشرائعه رغم بعض المظاهر المحسوبة على الإسلام.. ومما لا ريب فيه أن المرأة في عصر الانحطاط قد رزحت تحت وطأة مظالم كثيرة لم يكن أكثرها خاصًّا بها وحدها، بل أصاب الرجل أيضًا، كالجهل والظلم، وربما يكون ما أصابها أشد، إذ كثيرًا ما حُرمت من شخصيتها بوصفها إنسانًا مسؤولا مسئولية كاملة عن وجوده ومصيره، حُرمت نور العلم والعرفان، وحُرمت حتى من حقها في تقرير أمر زواجها، وحُرِمَت غالبًا حتى من نصيبها من الميراث وتصرفها فيما تملك ـ إن ملكته ـ وأبيحت إهانتها ومعاملتها بكل غلظة ووقاحة ـ وخصوصًا في الأرياف والبوادي ـ ولم ير أحد منها أو فيها، بل لم تر هي في ذاتها، الإنسان الكريم بل مجرد لوحة ينبغي أن تعكف على تجميلها وتطييبها بحسب ذوق البيئة، وبدنًا جسدًا تعكف على صقله وتتفنن في عرضه حسب حاجة السوق، وأداة لامتداد وتواصل العائلة، ومجالًا لإظهار الفحولة والرجولة، ولا مجال في إطار ثقافة اجتماعية تقوم على هذه النظرة للحديث عن حقوق ثقافية وسياسية للمرأة.

١ ـ إنه من المؤكد أن مجلة «الأحوال الشخصية» قد دفعت عن المرأة هذه المظالم الدونية، وحررّت المرأة ذاتها من جوانب احتقار الذات واستنقاصها، وأعادت إليها ثقتها بنفسها بوصفها إنسانا مسؤولا مسؤولية كاملة أو جزئية عن مصيره.

غير أنـه:

من باب المبالغة وترتيب النتائج على غير أسبابها أن نقدِّر أن ما نالته المرأة من حق التعليم والشغل مثلًا هو الأثر المباشر لمجلة «الأحوال الشخصية» على نحو أنه لو لم تصدر هذه المجلة ولم يكن الحبيب بورقيبة هو أول رئيس لجمهورية تونس بل كان «صالح بن يوسف» أو الشيخ «عبد العزيز الثعالبي» أو «محيي الدين القليبي» لما اجتازت قدم أنثى عتبة مدرسة ولا مؤسسة اقتصادية.. وكأن تونس بذلك ظاهرة فريدة في بلاد العرب والمسلمين التي لم يمن عليها القدر ببورقيبة، مع أن المرأة الآن تتعلم وتعمل في المؤسسات الاقتصادية في كل بلاد العرب والمسلمين والعالم كله، لأن هذه المكاسب هي الثمار الطبيعية في العالم الإسلامي لحركة الإصلاح الديني في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.. بل إن أول مدرسة لتعليم البنات في تونس هي مدرسة «البنت المسلمة» التي أنشأها الشيخ الزيتوني محمد صالح النفير رئيس جمعية الشبان المسلمين.. بل إن أول منطقة في العالم قاطبة أعطت المرأة لا مجرد حق التعلم، بل وحق الانتخاب وسوى بينها وبين الرجل، هي الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى قبل أن تُنكب بالاحتلال الروسي ثم الشيوعي، وعنها اقتبس الروس والغرب إعطاء هذا الحق للنساء.. فمن باب الدعاية الحزبية الفجة البحتة الربط بين هذه الحقوق المعترف بها للمرأة في كل مكان وبين مجلة «الأحوال الشخصية».

إن نسبة تعليم المرأة هي أرفع من تونس في أكثر من بلد عربي بما فيها سوريا ولبنان وفلسطين والأردن ومصر.. دونما حاجة لبورقيبة ولمجلة «الأحوال الشخصية».

٢ ـ إن حركة التحرر التي انطلقت مع النظام البورقيبي وكانت مجلة الأحوال الشخصية معبرة عنها، كانت أبعد من أن تكون ثمرة تأمل موضوعي لواقعنا متحررًا من ضغوط الغرب والإعجاب بل الانبهار بنمطه للمدنية: تأمل واثق بنفسه ومعتز بمدنيته ويتعامل مع الحضارات الأخرى من ذلك الموقع فيستمد من بيئته وتراثه عناصر هما الإيجابية متخليًا عن السلبيات، وقد يستمد من المدنيَّات الأخرى عناصرها وتقنياتها التي تناسب الواقع القائم.. أما ما حدث في غمرة حماسة الاستقلال فأمر آخر تمامًا.

لقد انطلق العهد الجديد في حالة انتشاء بمظاهر مدنية الغرب وتأزم تجاه كل ما يمت

للإسلام والعروبة بصلة، حتى إذا ذُكر الإسلام في هذا المناخ المفتون، فإنما يُذكر كعقبة في طريق التقدم، أو استعمل بعض نصوصه ـ أي الإسلام ـ بصورة محرَّفة لتستخدم كطعم للجماهير يسوِّغ به مرارة الحلول الغربية.. ولذلك غلبت على هذه الحركة للتحرير النسوي طابع التقليد الأعمى والشكلانية الفِجَّة.. المهم أن يُثبت هؤلاء الزعماء لأنفسهم أنهم قد تخلَّصوا من انتمائهم لأمة منحطة، وأن يثبتوا لأولياء أمورهم في الغرب أنهم مثلهم متقدمون، وأنهم يُجهدون أنفسهم للحاق بركبهم.. ولذلك كان الحرص الشديد على الزج بالمرأة في كل مجال حتى يشهد لنا بأننا نؤمن فعلًا بالمساواة بين المرأة والرجل، فزج المرأة في سلك الشرطة مع ما أحدث ذلك من مشكلات، وفي سلك الجيش، وفي سياقة الحافلات والطائرات، ولم تبق إلا دواميس المناجم وحقول النفط الصحراوية حتى يتم القبول والإشهاد لنظامنا بأنه فعلًا متمدِّن.. وأن التونسية حرة! مع أن نصوص الدين لم تحجب عن المرأة أيَّ عمل شريف، فقد ترك لعقولنا تقدير المصالح حسب ما تقتضيه طبائع الأمور من دون تعسُّف.

٣ ـ ومن هنا فإن خطورة هذه المجلة، كما أكدنا في موضوع آخر، لا تكمن أساسًا في بعض نصوصها التي أُسقِطت على المجتمع إسقاطًا من دون دراسة متأنية بصيرة(١) لواقعنا الاجتماعي ومدى حاجته لهذا التشريع وما يمكن أن تنتج عنه من مضاعفات.. ولكن تكمن خطورتها أساسًا في الموجة التي صاحبتها وسبقتها ولحقتها وساهمت هي في إلهاب نارها.. أعني موجة التغريب والثورة العمياء ضد كل تراثنا الفكري والثقافي والتشريعي، والرغبة في تقويض البناء الاجتماعي الموروث لاكتساب بطولة «التجديد»، ولو كان على حساب شخصيتنا الحضارية.. كل ذلك لإرضاء قادة الحضارة أو لإرضاء

---

(١) مثل إباحة التبني، وتأبيد الفراق بعد الطلقة الثالثة، وإباحة الزنى للراشدة، واعتبار القيام ضده حقًّا شخصيًّا للزوج المتضرر والزوجة.. والتخلي عن الحد الشرعي في ذلك. ومقابل إباحة التعدد الحرام وقع تجريم التعدد الحلال مهما كان المبرر «فالسجن والفراق عقوبتان لازمتان، مع أنه كان يمكن التعامل بمرونة مع قضية التعدد لوضع حد لحالة الفوضى التي كان عليها واعتبار الزواج الثنائي (رجل ـ وامرأة) هو القاعدة الطبيعية. ثم يتولى القانون تنظيم الاستثناءات، ويمكن للقضاة الإشراف على ذلك التنظيم.. ووضع الشروط الكفيلة بمنع الفوضى والتحجر لولا جموح التقليد الأعمى. مع ملاحظة أن النصوص الأصلية لهذه المجلة يمكن تخريجها على مذاهب الفقه الإسلامي بنسبة ٩٥٪ كما أثبتت ذلك الدراسة للأستاذ الطبوبي.. (غير منشورة).

أنفسنا أننا أبطال «تجديد».. وكان طبيعيًّا أن تثمر هذه الموجة التغريبية ـ الشاملة لكل ميادين الفكر والثقافة والتشريع المفتونة المقلدة للأشكال الغربية ـ تحللًا عامًّا في المجتمع.. وأن تتحول الحرية إلى إباحية وتمسخ العفة والحياء إلى رجعية وتأخر وتخلف.

وفي مثل هذا الجو الثقافي والنفسي تأتي جملة من التشريعات لتزيح ما بقي من عقبات قانونية في طريق الفساد، فيرفع عن الزنى كونه جريمة في حق المجتمع ليتحول إلى مجرد اعتداء على عقد الزوجية، وخارج الحياة الزوجية لا يُعَدّ جريمة إلا إذا حصل عن طريق الإكراه. ويأتي القانون المبيح والمشجع لتعاطي وسائل منع الحمل وإباحتها للجميع وبأسعار زهيدة جدًّا، ويأتي قانون إباحة الإجهاض لتدارك ما عساه يكون قد حصل من خطأ في استخدام الوسائل الواقية من الحمل. ويكفي لنأخذ فكرة عن المجزرة البشرية التي يديرها النظام ومؤسساته أن نعلم أنه في سنة ١٩٨٠م وحدها أزهقت عن طريق الإجهاض (٥٩٠٠٠) نفس بشرية، هذا فقط ما تم إزهاقه في المؤسسات الرسمية ودعك من غيره.

ويأتي إضافة إلى ذلك تشريع آخر يتم الحلقة الجهنمية وهو عدم الاعتداد بالبكارة في عقد الزواج، وبالتالي فاكتشاف عدم توافرها في الفتاة العروس ليس مبطلًا من مبطلات العقد.. ولكن إذا حصل وأفلتت من هذه الأفخاخ الشيطانية التي نصبت لاصطياد المولود فولد خارج الإطار الزوجي.. لم يفت المشرِّع الحكيم التهيؤ لهذه الحالة بما يناسبها فأعد مؤسسات خاصة لاستقبالهم قرى «أطفال بورقيبة» للعناية بهم ريثما تُتاح صفقة لتصديرهم إلى مؤسسات أوربية كنسية وغيرها، أو لمن يرغب في تبنيهم من المواطنين ـ فقد أبيح التبني بقانون ـ أو لتربيتهم عساهم ينفعون في الدفاع عن النظام.. ولا يعني ذلك أننا ننادي بقتلهم أو إهمالهم فهم ضحايا، وإنما هو مجرد رسم للإطار العام الذي ولدت فيه وأثَّرت في صنعه مجلة الأحوال الشخصية[1].

---

(١) لا يعني هذا أن المجلة كلها شر، فإن معظم نصوصها هو نسخ ـ مع التشويه أحيانًا ـ عن مجلة الشيخ جعيط، ويمكن أن نجد لها سندًا من هنا وهناك في مذاهب الفقه الإسلامي. وكما قلنا فإن معظم الخطر لا يكمن في النصوص الأصلية للمجلة ولكن فيما أضيف ولا يزال يُضاف إليها من غلو في محاكاة التقاليد الأجنبية ثم في الروح العامة التي صدرت هذه النصوص في إطارها.. روح التمرد على الإسلام وعلى تراث مجتمعنا والافتتان بالنموذج الفرنسي وإشاعة ثقافة عامة خلاصتها أننا نتحرر بقدر ما نطوع الإسلام للتغريبية أو نتمرد عليه جملة. وكان يمكن لمعظم نصوص المجلة أن تنافس في إطار الاجتهاد الإسلامي وتنبت في أرضه فتزكيه وتتزكى به ولا تكون منبتة كما هو حالها اليوم، ولا سيما أنه سواء

٤ ـ إن مجلة الأحوال الشخصية على الرغم من أنها أدرجت ضمن حركة تحرير المرأة فإنها لم تتجاوز الأشكال والمظاهر الخادعة في الغالب.. ذلك أنه للحكم على حقيقة هذه الحرية المراد إكسابها للمرأة.. ينبغي أن نعرف نوع العبودية التي كانت تخضع لها، فإذا كانت قد تخلصت منها فقد تحررت، وإلا فإنها لم تتحرر بل نحن مخدوعون.

لا يكاد المفكرون الباحثون يختلفون في أنها تتجاوز الضرورة، بمعنى امتلاك الكائن لذاته وتحديد مسالكها واختيارها عن وعي، فهل تجاوزت المرأة البورقيبية اعتبار نفسها أو اعتبار المجتمع والمؤسسات المالية لها كونها جسدًا رأسماله مقاييس محدَّدة في لون البشرة والعينين والشعر والطول والعرض والزي.. أليس ذلك ما كان يُؤخذ على منزلتها في المجتمع القديم؟ إذا كانت في المجتمع القديم موضوعًا لمتعة واستغلال رجل واحد.. فهل هي اليوم أقل استعبادًا، وهي لا تتحكم حتى في اختيار نوع لباسها وزينتها وذوقها؟ فكل ذلك تدبره مؤسسات رأسمالية من وراء البحار كما تتحكم فيها الدواخل، وتستغل جسدها أبشع استغلال مؤسسات الشغل والإدارة التي تعاملها في كثير من الأحيان كجسد يُشتهى، ويختار لا على أساس مقياس علمي أو خُلُقي، بل على الأساس نفسه الذي تختار على ضوئه لوحة إن لم يكن كبش العيد. إنها تعاملها بوصفها سلعة في سوق الشغل والإعلام والسياحة، مستغلة إحساسها الجمالي العاطفي الرقيق لاستخدامها طعما لاستجلاب الزبائن والترفيه عن السيَّاح، وسوقًا لا تنضب للاستهلاك اللاهث. وإذا عجز الدخل البخس لتلك المسكينة عن مواكبة عروض السوق وإغراءاته اللاهبة كان المقابل تدمير الخلق وتفليس العائلة.

وبالتالي فإنه ليس في إمكاننا أن نقول: إن المرأة تحررت في مجتمعنا إذا فهمنا أن تحرير النساء مسألة تكمن في عناصرها ـ كما يقول أحد المفكرين ـ في تحريرهنَّ وانعتاقهنَّ من إطار المفاهيم التي تجعل منهن مجرد أجساد تشتهى وإماء للعرض.. إن تحرير المرأة يعني انعتاقها من كل الأسباب التي تحكم عليها بالعبودية المسلطة عليها واكتشاف الكائن الإنساني فيها والعيش وفق مقتضياته وهي مقتضيات تتجاوز الخصوصيات الجنسية ذكرية أو أنثوية.. فالإنسان إنسان قبل أن يكون ذكرًا أو أنثى.

أجاء بورقيبة إلى السلطة أم غيره فإن مسألة إحداث تغييرات مهمة على أوضاع الأسرة آتية لا ريب فيها، ولكن بفرق أساسي بين أن تتأسس على أسس الإسلام وترتبط بتشريعاته وأخلاقياته وعقائده وهو ما كان مشايخ الزيتونة يعدُّونه، وبين أن تتم في سياق التغريب.

وإذا كان كل إصلاح يعطي أفضل ثمراته من القائمين عليه أنفسهم، فعامة التونسيين لا يتناقلون عن بورقيبة وأركان مدرسته تعاملهم مع المرأة إلا أنها أداة للترفيه والتسلية يستبدلونها بأسرع ما يفعلون بأحذيتهم[1]. أما الدعاوي العريضة وضروب النفاق فهم بلا منافس، ولكن المرأة التونسية في عمومها لا تزال مثل عامة الرجال ضحية للبورقيبية وامتداداتها التي استفحلت، وفي كفاح متواصل للذود عن شخصيتها الإسلامية العربية والحمد لله.

٥ ـ يفسر فصل مجلة «الأحوال الشخصية» وما حملته من دعاوى تحريرية نسوية عن التوجهات البورجوازية الرأسمالية للنظام الجديد بأن الأشخاص الذين قاموا عليه كانوا مشبعين بتلك التوجهات، فلقد تمتعت المرأة في المؤسسات الرأسمالية التي وافق النظام على قيامها وكانت جزءًا من مخطط إدماج بلادنا ضمن السيطرة الرأسمالية بدعوى نقل الخبرات التقنية تمتعت بالأولوية في التشغيل.

ففي مناقشة النواب لمشروع المخطط الخامس ورد في تدخل النائب خليفة عبيد ما يفيد بأن المرأة تمتعت بثلاثة أرباع مواطن الشغل التي وقع بعثها في أثناء المخطط الرابع من بداية ١٩٧٣م إلى ١٩٧٦م، وليس ذلك حبًّا في المرأة من طرف المؤسسات الرأسمالية بقدر اندراج ذلك ضمن مخططها في استغلال وتدمير هذا المجتمع.. فأجور النساء في المؤسسات الرأسمالية حتى في الدول الرأسمالية المستقلة، فضلًا عن التابعة هي أدنى بكثير من أجور الرجال وهي مخصصة في غالبيتها المطلقة في الأعمال التافهة، فضلًا عن أن العاملات أكثر استعدادًا لتنفيذ أوامر المؤسسة وأقل استجابة لنداء الاحتجاج والمطالبة عن طريق الإضراب إلى المكاسب المادية القريبة، مما يوفر للرأسمالية الدولية عاملًا مهمًّا للسيطرة المستمرة على بلاد العالم الثالث ـ والإسلامي منه بشكل خاص ـ لتدمير بنيته الثقافية والاجتماعية بتدمير القيم التي تقوم عليها العلاقات بين الرجل والمرأة والعلاقات الأسرية عامة.. فالأسرة هي المؤسسة الرئيسية لعملية التطبيع الحضاري والثقافي للأجيال الجديدة، والسيطرة على القيم التي تحكمها هي السبيل لتدمير النمط القديم وإحلال النمط الحضاري الغربي محله.

---

(١) ولقد حكى بورقيبة بشكل رسمي عن إباحيته.. ويكفي شهادة على فشل نموذجه الأسري أنه وقد تخطى الثمانين طلق زوجته «الماجدة»، فلم المزايدة على الإسلام؟!

وفي هذا الإطار الاستغلالي والتدميري الحضاري الغربي لمجتمعنا تندرج برامج تحديد النسل بكل أشكالها، هذه السياسة التي بدأت في تونس مع أول مخطط في بداية الستينيات، حيث لوحظ أن النمو البشري قد يكون عائقًا لسياسة التشغيل. وفي السبعينيات خطت هذه السياسة خطوة أخرى بالربط بين سياسة التنمية والسيطرة على النمو السكاني، فأنشأت مؤسسة خاصة لهذا الغرض، وكانت السياسة ـ كما لوحظ في ندوة «جمعية المغرب العربي الكبير للدراسات السكانية» المنعقدة بالرباط في النصف الثاني من شهر ١٢/ ١٩٨٢م ـ وليدة اتجاه معيَّن من طرف المموِّلين لسياسة التنظيم العائلي في العالم الثالث من طرف الوكالة الأمريكية للتنمية والبنك العالمي والصندوق الأممي للأنشطة السكانية وبعض الأجهزة الرأسمالية الأخرى التي تشرف عليها الولايات المتحدة وتمول سياسات التنظيم العائلي في العالم الثالث، وذلك لتحقيق جملة من الأهداف منها:

أ ـ الحد من النمو السكاني المتصاعد في العالم الثالث بسبب ضعف هذا النمو في البلدان الأوربية والولايات المتحدة، وهي مجتمعات غلبت عليها الشيخوخة.

ب ـ هذا النمو السكاني في العالم الثالث يمثل أكبر خطر على استقرار الأنظمة التابعة وينذر بالانفجارات الثورية.

ج ـ هذا البرنامج للإبادة الجماعية التي تقوم به المؤسسات الرأسمالية عن طريق عملائها يمثِّل أفضل طريقة لاستغلال المرأة، إذ إن التقليل من الولادات والانصراف عنها تمامًا وحتى عن الزواج يضاعف إنتاجية المرأة وينقص من غياباتها، كما ينقص من مصاريف الضمان الاجتماعي ويقلِّل من إمكانية انقطاع المرأة عن الشغل بعد المهارة التي اكتسبتها للتفرُّغ لتربية أبنائها.. وفي كل ذلك توفير ونمو للرأسمال.

د ـ وأخطر من ذلك تمثل سياسة تحديد النسل ـ بمختلف أشكالها ـ قلبًا للمفهوم الحقيقي للتنمية. فبدلًا من أن تتجه السياسة التنموية إلى بحث الوسائل التي توفِّر للسكان أفضل السبل لاستغلال الموارد وتنميتها وتوزيعها بعدالة تتجه إلى البحث عن أفضل الوسائل للسيطرة على النمو السكاني حفظًا لأصحاب الامتيازات على امتيازاتهم. وبدل النظر للإنسان على أنه طاقة إنتاجية خلاقة (عقل وساعدان) تنظر إليه سياسة تحديد النسل على أنه فم فاغر، وبطن واسع.. وبدل النظر للموارد على

أنها غير محدودة، بل تنمو بنمو المعارف العلمية والتقنية، تنظر الرأسمالية وأتباعها على أن الأمر عمومًا محسوب لا سبيل لإنقاذ العالم من المجاعة ـ كما نادى في القرن الماضي «مالتوس» ـ إلا بتحديد النسل أو الإعراض عن الزواج جملة.. تلكما وجهتا النظر اللتان دار حولهما الصراع في بوخارست سنة ١٩٧٤م بين أنصار أسلوب النمو الرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية ممن يرون سياسات التنظيم العائلي ركنًا أساسيًّا للنمو وبين العالم الاشتراكي والعالم الثالث ـ عدا الأتباع ـ الذين يدرجون تلك السياسات ضمن المخطط الإمبريالي للسيطرة على العالم الثالث، ويُلِحُّون على أن المشْكل لا يمكن فصله عن التحرر من الهيمنة الإمبريالية والنضال ضدها، واعتماد أسلوب التخطيط العلمي لاستغلال الموارد وتنميتها والعدل في توزيعها.

هـ ـ وأشد من كل ذلك خطورة هو ناحية تحول المرأة في العالم الثالث وبخاصة بلادنا إلى مختبَر أو حقل تجارب لاختبار المستحضرات الكيمياوية التي تنتجها الشركات الرأسمالية ومدى جدواها في السيطرة على النمو السكاني. ففي الوقت الذي تتبين فيه الآثار المدمرة لهذه المواد الكيمياوية على صحة المرأة والعائلة (حتى إن الإحصاءات تثبت أن ربع من يتعاطينها في الغرب قد توقفن عن ذلك بعد أن ثبتت علاقتها بأنواع من السرطان)، لا تزال هذه الحبوب بأنواعها تُباع في الصيدليات عندنا بلا أدنى رقابة بأسعار أرخص من الخبز، ولا يزال الإعلام المتواطئ يُسدل ستارًا من الصمت على المسكينات ضحايا هذا البرنامج الإمبريالي، سواء ممن أصبن بالسرطان أو الأمراض العصبية أو تشوُّه الأجنة أو ممن قضين نحبهن تحت مشرط أطباء مجرمين أبطال الوأد الحديث.

ومن ناحية أخرى، فإن آثار هذا البرنامج تتجاوز الآثار المادية الآنفة لتصب أساسًا ضمن برنامج الغزو الفكري وتدمير الشخصية الوطنية والعقائدية والثقافية لشعوبنا.. وما أحسب اليوم أن تونسيين كثيرين يتقبَّلون اليوم عقيدة أن الله هو الرزاق من دون حاجة إلى ضرب من التأويل أو التعطيل.. كيف يفهمون هذه الآية إذا قرءوها أو قرئت عليهم: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]؟ وهل الحرج الملجئ للتأويل أو التعطيل لعقيدة الرزق ليس له مساس من قريب أو بعيد بالمفاهيم العلمانية التي تسرَّبت إلى النفوس من أبواب كثيرة منها برنامج التنظيم

العائلي؟ هذا دون الحاجة إلى العودة للآثار المدمرة لهذا البرنامج على السلوك الخلقي والجنسي والعائلة وأنه ليحق للرأسمالية أن تعتز بأنها غيرت خريطة المجتمع التونسي من خلال تغييرها لخريطة العائلة بخاصة[1].

٦ ـ من كل ما سبق نؤكد أنه ـ وإن كانت لا تزال وضعية المرأة ووضعية المجتمع ككل تستوجب تغييرًا بل ثورة ـ تغيير لم يكن غائبًا عن اهتمامات حركة الإصلاح الديني في العالم الإسلامي قاطبة ومنه بالطبع تونس، وخير شاهد على ذلك كتابات الأفغاني وعبده ورشيد والبنا والشيخين والطاهر بن عاشور والفاضل بن عاشور والشيخ عبد العزيز الثعالبي.. وتجاوز الأمر مرحلة التوعية العامة إلى مرحلة التقنين، فظهرت مجموعة مجلات «الأحوال الشخصية»، أهمها في حدود علمنا المجلة التي أشرف عليها المفتي الشيخ عبد العزيز جعيط، وهي مجلات انطلقت من نصوص الشريعة ومن التراث الفقهي ـ من دون التزام مذهب واحد ـ لتلبية احتياجات الواقع المتعفن.. فكانت اجتهادات إسلامية وتطورًا تشريعيًّا منطلقًا من ذاتية الأمة واحتياجاتها، لا نقلًا عن الغرب وإسقاطًا متعسفًا على المواقع..

قلنا: ولئن كانت وضعية المرأة والمجتمع تقتضي تغييرًا بل ثورة، فإن المجلة البورقيبية المعروفة بمجلة الأحوال الشخصية، كانت من خلال ما حف بها من استجابة مهتزة لمطالب وطنية تسعى حقيقة إلى ضرورة التغيير والتطور، ولم تكن ثمرة تطور ذاتي للمجتمع

(١) تلقت تونس أكثر من جائزة تقديرًا لأدائها الجيد في تنفيذ سياسة المؤسسات الرأسمالية وتفوقها في إدارة حرب إبادة على المجتمع التونسي، الأمر الذي يدفع هذا المجتمع من دون بقية المجتمعات العربية دفعًا نحو طور الشيخوخة، غير أن كثيرًا من المدارس الابتدائية لم تعد تجد من التلاميذ الجدد ما يكفي لتغطية طاقتها للاستيعاب، الأمر الذي يجعل تونس، كما كشفت دراسة لسمير الغربي بمجلة «جون أفريك»، معرضة لهجرات من محيطها، فضلًا عما نال البيئة الخلقية والدينية من تدمير بأثر هذه السياسة الشيطانية.. قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، أي يخوفكم من الفقر فتقتلوا أولادكم وتنتهكوا ما حرم الله، والله يعدكم بالغفران إن أنتم أعرضتم عن ذلك ورجعتم إلى الله، وكما يطمئنكم على رزقكم وأولادكم إذا اتبعتم قوله. لذلك منع علماء المسلمين تحديد النسل بوصفه سياسة عامة للدولة لمصادمتها لتوجيهات القرآن والسنة ومقاصد الشريعة العامة في عمارة الكون وتكثير عدد المسلمين. وأبقى في الحالات الخاصة مجالًا للتحديد إذا اقتضته مصلحة الولد في الرضاعة مدة كافية أو مصلحة الأم الصحية فيقع تأخير الحمل.

التونسي ولا تلبية لضغوط ومطالب إنسانية، بل إنها ضمن الأجواء التغريبية التي ظهرت فيها كانت جزءًا من حملة عامة لتغريب مجتمعنا والقضاء على ذاتيته العربية الإسلامية.. وكانت صفقة الاستقلال جزءًا من تلك الحملة لنقل البلاد من مرحلة الاستعمار المباشر إلى مرحلة أشد وأخبث هي مرحلة الاستعمار غير المباشر.. وحتى المثقفون العلمانيون والمدافعات عن هذه المجلة بكل حماسة والذين تملَّكهم الرعب مما يسمونه الموجة السلفية العارمة، وجدوا أنفسهم مضطرين للاعتراض على بعض تطورات هذه المجلة، وبخاصة التعديل الذي أُدخل عليها سنة ١٩٨٢م والقاضي بتمليك المُطلَّقة بيت الزوجية وتمتيعها بغرامة عمرية.. مما من شأنه أن يمثل عقبة أخرى تصرف الرجال عن الزواج.. فإن رهان النظام على المرأة لم يكن رهانًا حضاريًّا وإنما كان رهانًا رأسماليًّا سياسيًّا.. لقد زعم أنه يناضل لإزالة مظلمة تاريخية بالمرأة ـ وهي بالفعل لحقت بالمرأة بل بالمجتمع كله ـ ولكنه ما زاد على أن أزال بعض أشكالها مضيفًا إليها مظالم وسيئات أفدح.

إن المرأة كما تقول السيدة زينب الهمامي لم تحقق شيئًا كبيرًا من وراء مجلة الأحوال الشخصية.

هل تحلّ وظائف القيادة في المرأة؟

قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤].

وفي الحديث: «ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»، وفي الحديث أيضًا: «النساء شقائق الرجال».

تبدو ظواهر بعض النصوص ومنها المتعلِّقة بمكانة المرأة في المجتمع وعلاقتها بالرجل متناقضة.. فعلى حين يؤكِّد بعضها تبعيَّة المرأة للرجل زوجًا كان أو أبًا أو أخًا

أو ابنًا، حتى لكأنها تبدو فاقدة للأهلية المدنية وللمسؤولية أمام الله والناس بها لا يبقى معه مجال للحديث إذن عن استقلال لشخصية المرأة، وهو ما لم يقل به مسلم.. وتأتي آية القوامة بسبب التوظيف الخاطئ على رأس تلك النصوص. مقابل ذلك يعلم من له أدنى إلمام بالإسلام توافر عدد آخر من النصوص المؤكدة على أن المرأة مخاطبة مباشرة بنصوص الإسلام وتكاليفه وأنها مسئولة مسؤولية دينية ومدنية كاملة على وجودها ومصيرها، وعلى معتقداتها وسلوكها، سواء تعلقت المسؤولية بمسائل شخصية كالزواج والطلاق، أم باكتساب المال والصرف فيه، أم تعلقت بالشؤون العامة كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو الأصل العظيم لمسؤولية الفرد المسلم، رجلًا كان أو امرأة، المسؤولية الاجتماعية، المسؤولية على الأمة، بل على الإنسانية والكون.. وأنه على هذا الصعيد لا مقياس للتفاضل بين الناس في الدنيا والآخرة بالجنس أو اللون، وإنما التمايز بحسب ما يقدمه الفرد من نفع للمجتمع والإنسانية ابتغاء وجه الله.. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. وفي الحديث: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وعملكم».. وفيه أيضًا: «أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة»، وفيه أيضًا: «الخلْق كلهم عيال الله، أحبكم إلى الله أنفعكم لعياله».

والحقيقة أن علماء الأصول والتفسير والفقه متفقون على أن خطاب التكليف يستوي فيه الرجال والنساء (انظر «مقاصد الشريعة» للشيخ العلامة الطاهر بن عاشور، و«تحرير المرأة في عصر الرسالة» لعبد الحليم أبو شقة)، وكان ذلك جليًّا كل الجلاء لدى الجيل الأول الذي تربى على يد النبي ﷺ وحمل راية الإسلام.

عن عبد الله بن رافع قال: كانت أم سلمة تحدث أنها سمعت النبي ﷺ يقول على المنبر وهي تمتشط: «أيها الناس، فقالت لماشطتها: كفي رأسي (أي اجمعي أطرافه). فأجابت الجارية: إنما دعا الرجال ولم يدع النساء. فقالت أم سلمة: إني من الناس». (رواه مسلم).

وإذن فالخطاب إلى المؤمنين أو المسلمين أو الناس ـ وسائر الصيغ التكليفية العامة ـ يشمل الرجال والنساء على حدٍّ سواء.. فالعموم والمساواة هي الأصل عدا ما تعلق به خصوص للرجال أو للنساء.

وفي صدد الحديث عن المشاركة السياسية للمرأة يحسن بنا أن نتطرق إلى المطالب الثلاثة الآتية:

المطلب الأول: المشاركة العامة للمرأة في الحياة السياسية.

المطلب الثاني: مشاركتها في الوكالة عن المؤمنين أو طائفة منهم في المجلس النيابي.

المطلب الثالث:حقها في الولاية العامة ومنها رئاسة الدولة.

* * *

المطلب الأول: حق المرأة بل واجبها في المشاركة العامة في الحياة السياسية

الحقيقة أن مجرد طرح هذا الموضوع يعبِّر عن أزمة في بعض أوساط المسلمين، أزمة تأقلم مع العالم الحديث ورفض له بالجملة حتى ما كان قد سبق الإسلام إليه وأكَّدتْه تعاليمه، مثل مشاركة النساء في الحياة السياسية.

لقد ظهر الإسلام دعوة دينية تهدي الناس إلى الإيمان بالله وتوحيده وعبادته. غير أن هذه الدعوة مثَّلت ثورة اجتماعية وسياسية غيَّرت حياة العرب التي آمنت تغييرًا شاملًا عميقًا... الأمر الذي جعل المجموعة الأولى التي آمنت به ـ وكل مجموعة حملت نفس الاقتناعات في أي بيئة أخرى ـ أشبه ما تكون بالأحزاب الثورية المعروفة في عصرنا باستهدافها، لا مجرد تغيير الأفراد والعلاقات بينهم وإنما تغيير السلطة أيضًا.. فكان الانتماء للدين الجديد هو بحق انتماءً لحزب ثوري ودخول في معارضة جذرية للقوى التقليدية المحافظة، أفكارًا أو علاقات وأنماط حياة.. بل في صراع مرير.. فكان الانتماء لهذا الحزب الثوري ثورة على النفس وعلى البيئة والعالم.

وأدركت قوى المحافظة خطر هذه الأفكار الجديدة والجماعة القائمة عليها، وقيادتها ذات المنهج الثوري، فسلطت عليها ما سُلط اليوم على القوى المحافظة على البلدان المختلفة من تشويه لسمعتها وتسفيه لمبادئها ومحاصرة لها وتجويع ـ ثم القمع والتعذيب والتهجير ـ إلى حد إعلان الحرب ضدها وملاحقتها.. فكان على جماعة هذا الحزب

الثوري أن يزيدوا التفافًا حول قيادتهم واستماتة في الدفاع عن مبادئهم.. وتحمل ما يسلط عليهم من بلاء، وممارسة أقصى درجات التضامن والبذل.. ما يصرفهم ذلك قيد أنملة عن مبادئهم والدعوة إليها والتفنُّن في إيصالها والبحث عن قواعد ومرتكزات خارج محيطهم الضيِّق، بعد أن استعصى إلى حين على الدعوة.. حتى إذا ظفروا بها وعقدوا تحالفًا مع أهلها لتجسيد مشروعهم ودولتهم وخاضوا غمار حروب طاحنة ضد أعدائهم دفاعًا عن أنفسهم ونشرًا لدعوتهم.

ولما أفضى القائد ـ صاحب الدعوة ورئيس الحزب ـ إلى ربه اجتمع أهل الحل والعقد من أصحابه يتشاورون، فلم يختلف منهم أحد على ضرورة استمرار المشروع.. دعوة ومجتمعًا ودولة وقيادة.. وهكذا استمر المشروع: دعوة ودولة.

ولقد كانت المرأة مشاركة في كل خطوات هذا المشروع الثوري منذ ولادته وفي كل أطواره.. الدعوية والجهادية.. فآمنت وكانت أول من استشهد.. وهاجرت إلى الحبشة وشهدت أهم اجتماع في تاريخ الإسلام انبثق عنه قرار الهجرة إلى المدينة لإقامة الدولة الإسلامية (اجتماع العقبة الثانية)، وحملها إيمانها بالدين الجديد وانتماؤها إلى حزبه على التضحية بكل ما تتمسك به المرأة عادة من أهل وسكن وزوج وذرية ومال واستقرار وشهدت كل وقائع الإسلام، وكانت إلى جانب القائد تُشير عليه، وأنقذت مشورتها أحيانًا من أزمات شديدة في حياة الجماعة، فلقد أشارت الصحابية الجليلة أمُّ سلمة على النبي ﷺ يوم الحديبية بالرأي الذي أنقذ الجماعة من أخطر الأزمات التي تعرضت لها علاقة القائد بأصحابه.

وكانت المرأة في بيت النبي ﷺ أهم من استوعب ونقل إلى الأمة علوم الإسلام وأنفقت ودعت وجاهدت وهاجرت واضطُهدت، ووقفت المواقف المشهودة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووليت الوظائف المهمة كقضاء الحسبة، مع أن القضاء من الولايات العظمى.. واستُشيرت في تولي الخلفاء.. وقادت معارضة مسلحة في عهدٍ هو أفضل العهود وضد خليفة من أعظم الخلفاء.. وكان تحت إمرتها رجال من أعظم الأصحاب والمبشَّرين بالجنة.. وإذا كان كل ذلك لا يُعَد مشاركة سياسية فماذا عساها تكون المشاركة السياسية؟! وهل من نشاط في حياة ذلك الحزب الثوري في كل أطوار نشأته وهو دعوة،

واستواؤه وهو دولة صغيرة.. ثم انتشاره أيديولوجية عالمية تستهدف تحويل العالم كله.. أفكارًا وعلاقات ومؤسسات.. هل من نشاط لم تشارك فيه المرأة بنصيب؟ هل لكون الحياة السياسية في تلك العهود لم تعرف الأشكال التنظيمية المعاصرة، وبعض شكليات الصراع السلمي على السلطة مثل الانتخاب وصناديق الاقتراع، هل ذلك مسوِّغ كاف لحرمان المرأة المسلمة من المشاركة السياسية بالكلمة والمسيرة أو الانتخاب أو الثورة المسلحة ضد الظلم والظالمين؟ كلا. اللهم إلا أن يتنازل المسلمون عن عقيدة لا يختلفون في الإيمان بها هي أن الإسلام جاء لكل زمان ومكان.. والعبرة بالمسميات لا بالأسماء.

أما النصوص الدالة علي حق المرأة المسلمة في المشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية فهي أضخم ممّا يمكن أن يتسع له هذا الفصل.. ويكفينا أن نتفَّق على أن الأصل في الأحكام الإباحة: أي الحرية ما لم يرد نهي.. وأن الأصل في الأحكام المتعلقة بالمؤمنين والمؤمنات المساواة ما لم يرد استثناء مخصِّص.. فما بالك والنصوص لم تحط بها عددًا المطولاتُ.. وانظر مثلًا في أهم وأروع وأجرإ مدونة معاصرة في حقوق المرأة قد مثلت ثورة في هذا الباب وطورًا جديدًا من أطوار الفكر الإسلامي المعاصر في موضوع المرأة.. أعني «تحرير المرأة في عصر الرسالة»[1].. الكتاب القنبلة والمنار.. ومع أن صفحاته قد تجاوزت ألفا وثلاث مائة صفحة من القطع الكبير، فإنه لم يستوعب من نصوص الحديث المتعلقة بالمرأة غير ما ورد في صحيح البخاري ومسلم فقط.. مقتفيًا طريقة البخاري في الاكتفاء ـ غالبًا ـ بإيراد الحديث الواحد والتعليق عليه من خلال اختيار عنوان له.

والحقيقة أن القرآن بنصوصه العامة وهو دستور الأمة، قد حسمت نصوص هذا الموضوع.. ألا تكفي هذه الآية العظيمة للقطع بحق المرأة بل وبواجبها بشأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما الأصل الأعظم للدعوة إلى الله بكل وسائلها الفردية والجماعية، السلمية والحربية.. وبكل أبعادها الفكرية والسياسية والأخلاقية؟

الآية المقصودة هي الواردة في توطئة هذا الموضوع ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١]. أليس مخجلًا بعد نزول هذه الآية بأربعة عشر قرنًا وبعد

(١) لمؤلفه عبد الحليم أبو شقة.

كل ما أنجز كفاح الشعوب والعقول من أجل التحرر والقضاء على مواريث الاستعباد في التمييز بين البشر باللون والجنس وكان للإسلام السهم المعلى في هذه الإنجازات التحريرية، ومنها تحرير المرأة ـ ولا ينفي ذلك وجود انحرافات ـ أليس مخجلًا أن يستمر صدور الفتاوى في بعض أقطار الإسلام عن بعض أهله بتحريم مشاركة المرأة في العمل السياسي وحتى قيادة جملها، بينما المرأة الإسرائيلية تغير على مدننا ومساجدنا؟ الحمد لله أن تيار الحرية يتقدم ويتسع باسم الإسلام وفي إطاره.

المطلب الثاني: مشاركة المرأة المسلمة ليس بوصفها ناخبة، بل بوصفها أيضًا مرشحة وكيلة عن قومها.. عن حي أو قرية أو مدينة أو عن منظمة نسائية، أو بوصفها مشتركة..

قد منع من ذلك قوم من أهل العلم منهم مولانا أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ وأجازه آخرون مثل شيخينا العظيمين: الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ والشيخ القرضاوي، وهما معدودان في الحركة الإسلامية المعاصرة من أهم رموزها إن لم يكونا أهمهم على الإطلاق. وهناك من يستدلون على منع المرأة من الترشح للمجلس النيابي بأن هذه ولاية عامة على الرجال وهي ممنوعة منها، إذ الأصل الذي أثبته القرآن الكريم أن الرجال قوامون على النساء.. فكيف نقلب الوضع وتصبح النساء قوامات علي الرجال؟!

وأود أن أبين هنا أمرين:

الأول: أن عدد النساء اللاتي يرشحن للمجلس النيابي سيظل محدودًا وستظل الأكثرية الساحقة للرجال، وهذه الأكثرية هي التي تحل وتعقد فلا مجال للقول بأن ترشيح المرأة للمجلس سيجعل الولاية للنساء على الرجال[1].

الثاني: أن الآية الكريمة التي ذكرت قوامية الرجال على النساء إنما قرَّرت ذلك في الحياة

(١) ما تجدر ملاحظته أن المتبوِّئات للمناصب العليا في كل دول العالم على كل الصعد عددهن محدود جدًّا وقل جدًّا أن وصل إلى الربع، وهذا أمر واقع لا علاقة له بدين معين، ذلك أن طبيعة توزيع الوظائف في المجتمع إنما اقتضته الفطرة، فمعظم قادته كانوا ولا يزالون من الرجال، وكثيرًا ما غلب العنصر النسوي في بعض القطاعات كالرعاية الاجتماعية، وليس في هذا أو ذاك إعلاء من شأن هذا أو امتهان لذاك. فالمجتمع عضوية واحدة في حاجة إلى كل وظائفها.

الزوجية، فالرجل هو رب الأسرة بدليل قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]. فقوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ يدلنا على أن القوامة على الأسرة وهي الدرجة التي مُنحت للرجال في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

أما ولاية بعض النساء على بعض الرجال خارج نطاق الأسرة فلم يرد ما يمنعه، بل الممنوع هو الولاية العامة للمرأة على الرجال.

والحديث الذي رواه البخاري: «لن يُفلح قوم ولَّوْا أمرهم امرأة» إنما يعني الولاية العامة على الأمة، أي رئاسة الدولة كما تدل عليه كلمة «أمرهم» فإنما تعني أمر قيادتهم ورئاستهم العامة.

أما بعض الأمر فلا مانع أن تكون للمرأة ولاية فيه، مثل ولاية الفتوى أو الاجتهاد أو التعليم أو الرواية والتحديث أو الإدارة ونحوها، فهذا مما لها ولاية فيه بالإجماع، وقد مارسته على توالي العصور.. حتى القضاء أجازه أبو حنيفة فيما تشهد فيه أي في غير الحدود والقصاص، مع أن مِن فقهاء السلف مَن أجاز شهادتها في الحدود والقصاص، وهذا يدل على عدم وجود دليل شرعي صريح يمنع تولِّيها القضاء وإلا لتمسَّك به ابن حزم وجمد عليه وقاتل دونه كعادته.

وسبب ورود الحديث المذكور يؤيِّد تخصيصه بالولاية العامة، فقد بلغ النبي ﷺ أن الفرس بعد وفاة إمبراطورهم ولوا عليهم ابنته، فقال: «لن يفلح قوم...» الحديث.

وما دام من حق المرأة أن تنصح وتشير بما تراه صوابًا من الرأي، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقول هذا صواب وهذا خطأ بصفتها الفردية، فلا يوجد دليل شرعي يمنع عضويتها في مجلس يقوم بهذه المهمة.

وما يُقال بأن السوابق التاريخية في العصور الإسلامية لم تعرف دخول المرأة في مجالس الشورى، فهذا ليس بدليل شرعي على المنع، وهذا مما يدخل في باب تغيير الفتوى بتغير الزمان والمكان. والشورى لم تنظم تنظيمًا دقيقًا لا للرجال ولا للنساء.

والشق الثاني من مهمة المجلس (بعد المحاسبة والنصح) يتعلق بالتشريع. وبعض المتحمسين يبالغون في تضخيم هذه المهمة زعمًا بأنها أخطر من الولاية والإمارة، فهي التي تشرِّع للدولة، لينتهي إلى أن هذه المهمة الخطيرة لا يجوز للمرأة أن تباشرها. والأمر في الحقيقة أبسط من ذلك.. فالتشريع الأساسي إنما هو لله وأصول التشريع الآمر والناهي هي من عند الله سبحانه.. وبعبارة أخرى فإن عملنا هو الاجتهاد والاستنباط والتفصيل والتكييف، والاجتهاد في الشريعة باب مفتوح للرجال والنساء جميعًا، ولم يقل أحد من الأصوليين إن من شروط الاجتهاد الذكورة، وإن المرأة ممنوعة من الاجتهاد.

ومما لا جدال فيه أن ثمة أمورًا في التشريع تتعلق بالمرأة نفسها وبالأسرة وعلاقاتها، ينبغي أن يؤخذ رأي المرأة فيها وألّا تكون غائبة عنها، ولعلّها تكون أنفذ بصرًا في بعض الأحيان من الرجال.

على أننا حين نقول بجواز دخول المرأة مجلس الشعب لا يعني ذلك أن تختلط بالرجال الأجانب عنها بلا حدود أو قيود أو يكون ذلك على حساب زوجها وبيتها وأولادها، أو يُخرجها ذلك عن أدب الاحتشام في اللباس والحركة والكلام، بل كان ينبغي أن يراعى بلا ريب ولا نزاع من أحد.

ويشير الدكتور القرضاوي في فتواه إلى أن الحاجة تقتضي من المُسلمات الصالحات أن يدخلنَ معركة الانتخابات في مواجهة المتحلِّلات، والحاجَة الفردية التي تجيز للمرأة الخروج إلى الحياة العامة[1].

أما مولانا أبو الأعلي المودودي، فقد أكد في وثيقة الدستور الإسلامي كما أعدَّها لدولة باكستان على أن الرجولة شرط في عضوية مجلس الشورى فضلًا عن الترشيح لرئاسة الدولة، مستدلًا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾. وقول النبي ﷺ: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة». فهذان النصان عنده قاطعان بأن المناصب الرئيسية في الدولة رئاسة كانت أو وزارة أو عضوية مجلس الشورى أو إدارة مختلف

(١) د. يوسف القرضاوي: «فتاوى معاصرة» نقلاً عن الأستاذ عبد الحليم أبو شقة، «تحرير المرأة في عصر الرسالة» ٢/ ٤٤٨ وما بعدها طبعة دار القلم: ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

مصالح الحكومة لا تفوَّض إلى النساء.. وأن السياسة والحكم خارجان عن دائرة أعمال المرأة[1].

وقد ذهبت إلى هذا الرأي لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ولجنة أخرى للفتوى بالكويت، فمنعت عن النساء المشاركة في الانتخاب[2].

ولأن حديث الأستاذ المودودي شمل عضوية النساء في مجلس الشورى وتجاوزها إلى غيرها من المناصب العليا في الدولة، فقد رأينا دحض هذا الموقف ضروريًّا لإزالة العوائق من طريق المشاركة الضرورية في نهضة الأمة من طرف النساء في جميع المجالات حسب مؤهلاتهنَّ.

لقد أخذني العجب بعد أن طالعت هذه الفتاوى القاضية بعزل المرأة عن كل مشاركة في الحياة العامة، استنادًا إلى الآية والحديث المتقدمين، فرجعت إلى ما وصلت إليه يداي من كتب التراث الإسلامي خصوصًا في مادة السياسة الشرعية، أبحث عن مواقف المتقدِّمين من هذه المسألة، فازدادت دهشتي إذ لم أظفر فيها طالعته من مباحث بطرح لهذه المسألة في غير باب الإمامة. حيث انعقد الإجماع أو كاد بين علماء السياسة الشرعية على منع الولاية العامة (الإمامة) على المرأة، استنادًا إلى الحديث المتقدم، رغم أن كثيرًا من العلماء قد خوَّل لها منصب القضاء على أهميته، إلى درجة أن أبا يعلى الفراء اشترط في الإمام أن يكون «على صفة من يصلح أن يكون قاضيًا: من الحرية والبلوغ والعقل والعلم والعدالة»[3].

المطلب الثالث: حق المرأة في الولاية العامة أو رئاسة الدولة

ذهب بعض فرق الخوارج مثل الشبيبية إلى جواز إمامة المرأة إذا قامت بأمورهم وخرجت على مخالفيهم، وقالوا: إن غزالة أم شبيب كانت إمامًا بعد موت شبيب[4]. وكان لعائشة رضي الله عنها شأن في السياسة إذ قادت معارضة مسلحة، ضمت ما يزيد

---

(١) المودودي: تدوين الدستور الإسلامي ٦٥.

(٢) ورد ذلك في كتيب «فتاوى في أحكام النساء» وهو ما ظلت بعض الهيئات في الكويت تعتصم به.

(٣) أبو الحسن الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة ١٩٦٦.

(٤) الملل والنحل للبغدادي ٧٥، ٧٦.

على ثلاثة آلاف من الجند فيهم من الصحابة بعض المبشَّرين بالجنة، وكانت كما ذكر أبو بكرة «تأمر وتنهي، فإذا الأمر أمرها»[1]، فكانت في مقام الرئاسة تخطب وتفاوض وتنصب إمام الصلاة[2].. واشتهرت في التاريخ الإسلامي نساء أخريات في ميدان السياسة، منهن الحرة الصليحية التي حكمت مناطق من اليمن مدة تزيد على أربعين سنة من القرن السادس.

لقد استند المجيزون لتقليد المرأة الإمامة العظمى إلى أن عموميات الإسلام تؤكِّد المساواة بين الذكر والأنثى، وأن الحديث المذكور لا يمثِّل أساسًا صالحًا لتخصيص عموم المساواة، ذلك أن الحديث المذكور ورد بخصوص حادثة معيَّنة صورتها أنه لما ورد على النبي ﷺ أن كسرى فارس مات وأن قومه ولَّوْا ابنته مكانه، قال عليه السلام ذلك القول تعبيرًا عن سخطه على قتلهم رسوله إليهم.. فالحديث لا يتعدى التعليق على الواقعة المذكورة، حتى يكون مرجعًا في مادة القانون الدستوري وخصوصًا وأن علماء الأصول لم يتفقوا على أن العبرة للفظ لا لخصوص السبب، فما كان لفظه عامًّا لا يعني أن حكمه عام أيضًا، الأمر الذي يجعل الحديث لا ينهض حجة قاطعة فضلًا عن ظنّيته من جهة السند على منع المرأة من الإمامة العامة[3].

أما الآية المذكورة فلم ير فيها علماء السياسة الشرعية قبل المودودي سندًا لمنع المرأة من الولاية العامة فضلًا عن منعها من المشاركة السياسية جملة.. إذ إن القوامة إذا كان معناها الرئاسة بإطلاق كانت النتيجة منع المرأة من الرئاسة أبدًا في أي مستوى من

---

(١) شرح النهج ٢/ ٨١ نقلاً عن الفاسي، المصدر السابق ٣٤٧.

(٢) شرح النهج ٢/ ٨١ نقلاً عن الفاسي، المصدر السابق ٣٤٦، ٣٤٧.

(٣) ظنية الحديث تأتي من جهة راويه وهو أبو بكرة رضي الله عنه، فعلى الرغم من أنه صحابي جليل من مسلمي الفتح فإنه كما ذكر عن نفسه قد حد في القذف.. وقد اختلف العلماء في قبول شهادة المحدود التائب.. ولم يرجع أبو بكرة مع أن السلامة شرط لقبول الراوي لدى المحَدِّثين.. وعلى الرغم من أن أبا بكرة من شيوخ البخاري ووثقه وروى عنه في صحيحه، فإن الأحكام الشرعية وبخاصة ما تعلق منها بنظام الدولة ما ينبغي أن تبنى على سند ظني مهما كانت درجة الظنية ضئيلة.. ويستخلص الأستاذ محمود المرادي من مناقشته المطولة للعلماء الذين استندوا إلى حديث أبي بكرة لمنع النساء من الولاية العامة ـ ودعك ممن استشهد به على منعها من المشاركة السياسية إطلاقًا ـ «أن الدليل على عدم جواز تولي المرأة الحكم غير كاف والله أعلم» (الخلافة بين التنظير والتطبيق ١٣١).

المستويات، حتى وإن كان دارًا لرعاية الأطفال أو إشرافًا على تطبيق، أو تحقيقًا في شأن أو إدارة لمتجر أو مصنع.. وهو شطط لم يذهب إليه - فيما علمنا - أحد من علماء الإسلام القدامى أو المحْدَثين ومفسري القرآن الكريم، حتى إن أشهر المفسرين في هذا العصر، على منزعه السلفي في التفسير وميله الشديد إلى مخالفة ما جاء عن الغرب، قد اعترف وهو بصدد تفسير آية القوامة أنه كان يذهب في فهمه للآية المذكورة إلى أنها تعني الرئاسة العامة للرجال على النساء في كل شأن، ولكنه عدل بعد طول تأمل عن هذا الرأي، ذلك أن سياق الآية هو حديث عن الخلافات الزوجية مما يقتضي أن الرئاسة الواردة في الآية لا تتجاوز نطاق الأسرة[١].

وهي رئاسة ككل الرئاسات لا مجال فيها للإطلاق، بل هي خاضعة وجوبًا للنص والشورى.. ولقد وردت الشورى في إحدى مواردها الثلاثة في القرآن الكريم في شأن العلاقات الأسرية ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

والنتيجة أنه ليس هناك في الإسلام ما يقطع بمنع المرأة من الولايات العامة قضاء أو إمارة. حتى على فرض ذهابنا مع الجمهور إلى منعها من الولاية العامة (رئاسة الدولة) فبأي مستمسَك يستمسِك غاصبو حقها المشاركة في إدارة الشؤون العامة في كل المستويات[٢]؟ ليس لهم من مستمسك غير التقليد، وليتهم قلدوا الآباء في عصورهم

(١) في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب، الجزء الثالث (النص مروي بالمعنى).

(٢) ولقد سرنا جدًّا إقدام أهم أعلام الفكر الإسلامي المعاصر.. شيخنا محمد الغزالي - رحمه الله - على مواجهة تيار المحافظة في أهم قلاعه التي لا يزال متحصنًا فيها، أعني موضوع المرأة.. من خلال كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» تأصيله لمكانة المرأة في الإسلام وإزاحته من طريق مشاركتها الفاعلة في النهضة الإسلامية كثيرًا من العوائق ومخلفات القرون.. المتحصنة بالدين وليست منه.. ولقد ذهب في موضوع مشاركة المرأة السياسية إلى ما ذهبنا إليه من أنه ليس في التصور الإسلامي من حاجز ديني حقيقي يحظر على المرأة تبوُّء أي منصب في الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي قد تأهلت له بما في ذلك رئاسة الدولة، وذلك رغم أن الولاية العامة التي حظرها الفقهاء القدامى عن المرأة.. كما نبه إلى ذلك شيخنا القرضاوي.. إنما هي الخلافة وهي الولاية على كل الأمة، بينما الدول الإسلامية القائمة هي مجرد إمارات لا ينطبق عليها مسمى الولاية العامة.. ثم إن الواقع المشاهد أن المسؤولية اليوم جماعية والولاية مشتركة تقوم بها مجموعة من المؤسسات والأجهزة وللمرأة أن تحمل جزءًا منها مع من يحملها عندما تكون حاكمًا، وليست هي الحاكمة المطلقة التي لا يعصى لها أمر فإنما هي تترأس حزبًا يعارضه آخر، وهي في حزبها لا تملك إلا صوتها فإن عارضتها

الذهبية، عصور تحرر العقل وانطلاق الأمة، إذن لكانوا أهدى سبيلًا، ولقرءوا عند شيخ المفسرين ابن جرير الطبري والإمام أبي حنيفة وفقيهنا الثائر الأندلسي ابن حزم، أنهم قد أجازوا للمرأة لا مجرَّد المشاركة في الانتخاب أو الانتماء إلى الأحزاب أو القيام ببعض وظائف الدولة كالكتابة والوزارة، بل لقد أجازوا لها تولي القضاء وهو من الولايات العامة التي تقاس شروط الإمامة عليها.

ولو تحرروا من تقليد آباء عصور الجمود وامتدت أبصارهم إلى أبعد من ذلك إلى عصر التشريع، عصر النبي ﷺ وخلفائه عليهم الصلاة والسلام، ومقاصد الشريعة الغراء من بسط العدل بين الناس والمساواة أخص معانيه.. لألفوا المرأة لا تشارك بالرأي فحسب في الشؤون العامة، بل وتشارك أيضًا بالسيف، وتدخل في ساعة الأزمات بالرأي السديد والحل المنقذ، كما تدخلت أمُّ سلمة رضي الله عنها في صلح الحديبية لمّا أغضب الأصحاب نبيهم ﷺ فلم يطيعوه فدخل عليها مهمومًا، فأشارت عليه بالحل الذي أنقذ الموقف، في أحرج موقف عرفته العلاقة بين القائد وصحبه. فهل اعترض النبي ﷺ على تدخلها بحجة أن هذه سياسة وأن السياسة والحكم خارجان عن دائرة أعمال المرأة كما ذكر شيخنا المودودي عفا الله عنه بعد أربعة عشر قرنًا؟ وهل كان رئيس مجلس الشورى عبد الرحمن بن عوف وهو ينفذ وصية عمر بن الخطاب في إفراز أحد المرشحين الستة للخلافة، فما ترك أحدًا في المدينة إلا استشاره حتى إنه كان

الأغلبية غدا رأيها كرأي أي إنسان. (من فقه الدولة في الإسلام ١٧٦ دار الشروق). وهذا التنبيه المهم من قبل شيخنا المجدد يكشف عن الإطار التاريخي الذي تبلورت فيه كثير من المواقف في شأن المرأة والذي كان الحكم الفردي هو سمته العامة في العالم كله وكان وعي النساء محدودًا وكذا تجربتهن في الحياة، فكان هذا الوضع الاجتماعي هو الأرضية التي تأسست عليها مثل هذه التأويلات والتوجيهات للنصوص الإسلامية الواردة الحاملة لأكثر من وجه، رغم معارضة تلك التأويلات لبعض مقاصد الإسلام في العدل، ومنها أن المفاضلة بين الناس ليست إلا على أساس ما هو مكتسب من فضائل العقل والدين والخلق ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وأنه قد أتت أحداث الزمان على ذلك الإرث التاريخي لطبيعة الحكم الفردي وسادت فلسفات في السياسة تفصِّل السلطات وتوزعها على نطاق واسع بما يمنع كل صور الانفراد والاستبداد وغدا الحكم مؤسسة ضخمة جدًّا، وكان على شورى الإسلام أن تسود بهذا التطور المجتمع وأن تعيد النظر في ضوء هذا التطور في كثير إن لم يكن في معظم مواريث فكرنا السياسي الذي تأسس في مناخات محلية استفحل فيها حكم الفرد والغلبة والقوة. ولأن المرأة عضلاتها أهون شأنًا فقد استبعدت كما استبعدت جماهير الفقراء والمستضعفين، وساد مبدأ «من ظهرت شوكته وجبت طاعته».

يدخل إلى خدور النساء لأخذ رأيهن في المرشَّح الأفضل؟ هل كان غائبًا عنه كتاب الله وسنة نبيه بما في ذلك الآية القوامة وحديث بنت كسرى؟! أم لأنه كان مستحضرًا كل ذلك لم يهمل رأي النساء في الشأن العظيم، كيف لا والشؤون العامة تنعكس نتائجها على الرجال والنساء على حد سواء، فبأي مسوِّغ تُقصى المرأة عن شأنها وهي إنسان مكلف كامل التكليف؟!

وإن مما يعزي النفس أن معظم رجال السياسة الشرعية في هذا العصر لم يذهبوا بدافع التقليد للآباء ـ أو رد الفعل على الغرب ـ إلى ما ذهب إليه شيخنا المودودي، بل قد أقروا أن الأصل في الحقوق العامة المساواة بين الرجال والنساء، عدا مواطن قليلة تقتضيها ضرورة التكوين أو ضرورات المجتمع.

ونكتفي هنا بنقل هذه الفقرات اللامعة للشيخ الأزهري عبد الله دراز رحمه الله: «إن القرآن يقرر مشاركة الرجل والمرأة في كيان الدولة والمجتمع سواءً بسواء ـ عدا بعض استثناءات قليلة متصلة بخصوصيتها الجنسية ـ ويجعل لها الحق مثله في النشاط الاجتماعي والسياسي بمختلف أشكاله وأنواعه.. ومن جملة ذلك الحياة النيابية وغير النيابية مما يتصل بتمثيل طبقات الشعب ووضع النظم والقوانين والإشراف على الشؤون العامة، والجهود والدعوات والتنظيمات الوطنية والكفاحية والاجتماعية والإصلاحية».

«والقول بأن المرأة المسلمة جاهلة غافلة، وأنه لا ينبغي شغلها في غير بيتها وأمومتها ليس بشيء، فالسواد الأعظم للرجال في البلاد العربية والإسلامية هم أيضًا جاهلون وغافلون، ولم يقل أحد إنهم يجب أن يُحْرَمُوا بسبب ذلك من حقوقهم السياسية والاجتماعية.. وليس كل امرأة مرشحة لمباشرة العمل والنشاط في المجال السياسي والاجتماعي، وإنما يترشح لذلك أفراد كما هو شأن الرجال، مما لا يتحتم أن يكون معناه أو مؤداه انصراف النساء عن بيوتهن وأمومتهن»[1]. ونقول هذا من قبيل المساجلة وبقطع النظر عن الدلائل القرآنية التي تمنح المرأة الحقوق السياسية والاجتماعية والمدنية أسوة بالرجل، والتي ينبغي أن تكون هي القول الفصل في صدد ما نحن بسبيل تقريره تأسيسًا على مبدإ شمول عموميات الخطاب القرآني للجنسين على حد سواء.

(١) دستور الأخلاق، نقلاً عن نظام الحكم في الإسلام: القسمي ٣٤٣.

وإذا كانت المرأة القروية الإسلامية الأولى لم تشترك في شؤون الدولة على نطاق واسع، فمرد هذا إلى طبيعة الحياة الاجتماعية، وليس من شأنه أن يعطِّل الأحكام والتلقينات القرآنية، لأن كتاب الله وسنة رسوله الثابتة هما منبع الشريعة والأحكام الإسلامية لمختلف العصور والبيئات، ومع ذلك فقد كانت مساهمة المرأة عظيمة في حركة التغيير وبناء الحضارة الإسلامية سواء في المرحلة المكية أو المدنية.. وفي العهد الراشدي وسائر عهود الازدهار كانت حاضرة في أخطر المواقع مثل عقد تأسيس الدولة الإسلامية.. والغزوات. واستند ابن حزم إلى تولية عمر بن الخطاب «الشفاء» الحسبة على السوق ليقرر: وجائز أن تلي المرأة الحكم هذا رئاسة الدولة في رأيه.

أما تقي الدين النبهاني: فقد ذهب في دستوره إلى أنه لكل من يحمل التابعية (الجنسية) إذا كان بالغًا عاقلًا الحق في أن يكون عضوًا في مجلس الشورى رجلًا كان أو امرأة[١].

وفي دستور الجمهورية الإسلامية الذي يُعَد في مجمله خلاصة لجهاد الحركة الإصلاحية على صعيد الفكر والعمل[٢]، تتبوأ المرأة منزلة مرموقة تجسيدًا لآية التوبة ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ استحقتها ببلائها العظيم في تفجير أعظم ثورات الإسلام في العصر، فقد ورد في المادة الحادية والعشرين: «الحكومة مسؤولة عن توفير حقوق المرأة في المجالات كافة مع ملاحظة القيم الإسلامية».

وفي المادة العشرين ورد: «يتمتع جميع الأفراد ـ سواء المرأة والرجل ـ بحماية القانون بصورة متساوية كما يتمتعون بكافة الحقوق الإنسانية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية مع مراعاة الموازين الإسلامية»[٣]. ولا عجب أن يحل الدستور الإيراني المرأة في مكانة عظيمة، وقد كانت مساهمتها كبيرة في تفجير الثورة وصنع قوافل الشهداء الذين دوخوا الأعداء، فكان لها مكانها في مجلس الشورى، كما كان لها قبل ذلك مكانها في

(١) دستور الأخلاق، نقلاً عن نظام الحكم في الإسلام: القسمي ٥٤.

(٢) حجة الإسلام الشيخ محمد علي تسخيري: حول الدستور الإسلامي، منظمة الإعلام الإسلامي ـ طهران ـ ١٤٠٢هـ.

(٣) وثيقة الدستور، وانظر إلى المصنف البارز للسيد آية الله منتظري «دراسات في ولاية الفقيه» لم يورد فيه شروط المستشار المذكورة.

المسيرات الشعبية وفي كل موطن من مواطن الفداء، وكانت مشاركتها تلك خير معين لها في حسن أدائها في مهمتها الرئيسية في تخريج أجيال البناء والشهادة.

ولا عجب أن تظل الجماعة الإسلامية في باكستان ـ على عمق وأصالة فكر مؤسسها العظيم ـ جماعة نخبوية غير قادرة على صناعة مد جماهيري، حتى ظل موقفها الاجتماعي عامة ومن المرأة بخاصة محافظًا. ولقد تجولت في باكستان فما وقعت عيني على امرأة المودودي المنقبة إلا في قرية المنصورة التي عزل فيها قادة الجماعة أنفسهم عن الناس. والرجاء عظيم في أن أميرها الجديد خرِّيج حركة الشباب في الجامعة أن يُخْرِج واحدة من أعرق الجماعات الإسلامية المعاصرة من شرنقتها ونخبويتها المنفردة ويدرجها ضمن حركة التاريخ وسياق التاريخ المعاصر، وهو ما دعا به أتم الوعي وباشر به حفظه الله وصانه على تخطِّي سلاسل الجمود التي تطوقه.

أما الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة، فقد كان فكر مؤسسها مجدِّدا، على يده انتقلت الحركة الإصلاحية من طور النخبوية إلى حركة شعبية عارمة، كان من الطبيعي أن يكون للمرأة فيها سهم معلى، فازدهر قسم النساء بالجماعة وبرزت زعامات فاعلة مثل المجاهدة صاحبة أول تفسير نسوي للقرآن الكريم الحاجة الشيخة زينب الغزالي. وعلى الرغم مما أحدثه القمع من انطواء في فكر الجماعة بما أفسح المجال أمام اجتياح الساحة تيار العلمنة والتيارات المتشددة الآخرى.. فإن الحركة ما لبثت أن استدركت أمرها واستأنفت مسار البناء علي فكر مؤسِّسها، فأصدرت سنة ١٩٩٦م وثيقتين مهمتين أصَّلت الأولى الخيار الديمقراطي وتعدد الأحزاب، وأصَّلت الثانية المشاركة السياسية للمرأة ممثلة لعامة الناس في مجالس الشورى.

ولا شك في أن الريادة بين الحركات الإسلامية المعاصرة في تحرير المرأة ومشاركتها تضم الحركة الإسلامية السودانية بتأصيلات مؤسسها المجدد الشيخ الترابي.. ولربما تعود ريادة هذه الحركة وسبقها لغيرها على صعيد التغيير الاجتماعي والسياسي إلى نقاط قوة لديها أهمها موقفها الثوري التجديدي في مجال مشاركة المرأة في التغيير الاجتماعي، حتى إن الداعية الإسلامية السودانية سعاد الفاتح سبقت كل العلمانيات في بلادها إلى اقتحام البرلمان.

مع كل ما حصل من تطورات على هذا الصعيد، فإن رصيد التقليد والجمود والمحافظة وسد الذرائع والتحذير من مشاركة المرأة وتغليب جانب الحذر منها وتوقع الفساد والفتنة منها.. أي تغليب فكرة المرأة الجسد الفتان على فكرة المرأة الإنسان، المرأة شقيقة الرجل في الخلافة عن الله ورسوله وعن الأمة، وهي جوهر الإسلام الذي نطقت به الآية العظيمة آنفة الذكر ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ مع كل ما حصل من تطور في هذا المجال الحيوي، فإن رصيد المحافظ والجمود، كما ذكرت، لا يزال هو الغالب المسيطر على أمتنا، إسلامييها وعلمانييها رغم كل الدعاوى، بما يمثل إعاقة كبرى لتنوير أو إصلاح، ويفرض مواصلة تعميق وتوسيع عمل في كل مجال.

* * *

الخلاصة

إنه ليس في الإسلام ما يبرر إقصاء نصف المجتمع الإسلامي عن دائرة المشاركة والفعل في الشؤون العامة.. بل إن ذلك من الظلم للإسلام ولأمته قبل أن يكون ظلماً للمرأة ذاتها، لأنه بقدر ما تنمو مشاركة المرأة في الحياة العامة بقدر ما يزداد وعيها بالعالم وقدرتها على السيطرة عليه، وأنه لا سبيل إلى ذلك من غير إزالة العوائق والارتقاء بوعيها بالإسلام والعالم، والثقة في قدراتها حتى تكون مساهمتها فعالة في صناعة جيل يخرج عن خويصة نفسه لينخرط في الهموم العامة للأمة والإنسانية.

نحن إذن مع حق المرأة الذي قد يرفع أحيانًا إلى مستوى الواجب في مشاركتها في الحياة السياسية على أساس المساواة الكاملة غير المنقوصة في إطار احترام أخلاقيات الإسلام، فإنما التفاضل بالكفاءة والخلق والجهد لا بالجنس أو اللون.. وتأمل في هذه الآية العظيمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ فما أحوج صحوتنا ونهضتنا إلى زعامات نسائية على كل صعيد، من نوع عائشة، وخديجة، وأم سلمة، وفاطمة، وأسماء، وأم عمارة، وزينب الغزالي، والدكتورة سعاد الفاتح.. فأين بناتنا؟

* * *

أبرز مصادر الكتاب ومراجعه

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ أبو الأعلى المودودي، تدوين الدستور الإسلامي (بيروت: دار الرسالة).

٣ ـ أبو الحسن الماوردي، الأحكام السلطانية (القاهرة ١٩٦٦).

٤ ـ أوزولد شفارتس، علم النفس الجنسي (تعريب شعبان بركات).

٥ ـ ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنِحل (بيروت: دار المعرفة).

٦ ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ.

٧ ـ تفسير ابن كثير.

٨ ـ تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (طبعة تونس).

٩ ـ تفسير الرازي (طبعة تونس).

١٠ ـ تفسير الطبري.

١١ ـ تفسير الظلال، سيد قطب (طبعة بيروت).

١٢ ـ تفسير القرطبي (طبعة بيروت).

١٣ ـ تفسير الكشاف للزمخشري (طبعة طهران).

١٤ ـ تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (طبعة القاهرة).

١٥ ـ تفسير الميزان للطباطبائي (طبعة بيروت).

١٦ ـ حسن الترابي، المرأة في تعاليم الدين وتقاليد المجتمع.

١٧ ـ د. يوسف القرضاوي، فتاوى معاصرة (طبعة القاهرة).
١٨ ـ د. يوسف القرضاوي، من فقه الدولة في الإسلام (القاهرة: دار الشروق ١٩٩٦).
١٩ ـ روجيه غارودي، في سبيل ارتقاء المرأة (ترجمة جلال مطرجي).
٢٠ ـ عبد الحليم أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة (دار القلم ١٩٩٠).
٢١ ـ العقاد، المرأة في القرآن.
٢٢ ـ كتب الصحاح والسنن.
٢٣ ـ محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية (دار الفجر ١٩٩٩).
٢٤ ـ محمد قطب، شبهات حول الإسلام (القاهرة: دار الشروق ١٩٨٣).
٢٥ ـ يوسف الصديق، المفاهيم والألفاظ في الفلسفة الحديثة (ليبيا ـ تونس: الدار العربية للكتاب).

عن المؤلف

راشد الغنوشي هو رئيس ومؤسس حركة النهضة التونسية ونائب رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين. يعتبر الشيخ راشد أحد أبرز المفكرين الإسلاميين في العصر الحديث وأحد ألمع قيادات العمل الإسلامي. وتعتبر هذه الشخصية بمثابة بوصلة الحركات الإسلامية المعاصرة في فكرها وتوجهها وخطابها ومشروعها. درس العلوم الشرعية في جامع الزيتونة بتونس، ثم انتقل إلى جامعة دمشق ليدرس الفلسفة، ومنها إلى باريس حيث سجل لنيْل درجة الماجستير في الفلسفة بجامعة السوربون. أسس حركة الاتجاه الإسلامي في تونس سنة ١٩٨١ التي غيرت اسمها سنة ١٩٨٨ إلى حركة النهضة. كان أبرز المعارضين لنظامي بورقيبة و بن علي، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة عدة مرات في العهدين، وقضى عدة سنوات في السجن. بعد خروجه من السجن لجأ إلى الجزائر وبقي فيها إلى أن دخلت مرحلة الاضطراب، وطلب بعد ذلك اللجوء السياسي في بريطانيا. بعد ثورة ١٤ يناير ٢٠١١ عاد راشد الغنوشي إلى تونس بعد أكثر من ٢٢ عامًا في المنفى، واستقبله بمطار تونس قرطاج عشرات الآلاف. قاد حزب حركة النهضة إلى الفوز بالأغلبية في الانتخابات البرلمانية والتحالف مع أحزاب علمانية لتكوين أول حكومة منتخبة في تاريخ تونس.

يعتبر الشيخ راشد الغنوشي أحد أبرز المنظرين لما يعرف بـ«الإسلام السياسي» و«الفكر الإسلامي المعتدل». وقد أسهمت كتاباته في إحداث تطور في فكر وخطاب التيار الإسلامي وفي مراجعة وتغيير مفهوم حركات الإسلام السياسي بشأن عدد من القضايا المهمة ومنها: الحرية والديمقراطية والتعددية الحزبية ودخول العملية السياسية والمشاركة في الانتخابات والبرلمانات والحكومات ونبذ العنف، والحريات الخاصة والعامة. و من الأحزاب التي تأثرت بفكره حزب العدالة والتنمية بقيادة طيب أردوغان في تركيا.

له كثير من المؤلفات من أهمها: الحريات العامة في الدولة الإسلامية، المرأة بين القرآن وواقع المسلمين، حقوق المواطنة في الدولة الإسلامية، مقاربات في العلمانية والمجتمع المدني، الحركة الإسلامية ومسألة التغيير، نحن والغرب... إلخ. وقد ترجمت مؤلفاته إلى لغات أجنبية كالإنجليزية والفرنسية والإسبانية والتركية والفارسية والأردية، إلا أنها كانت ممنوعة في معظم البلدان العربية.